نصف مجهـول

نصفٌ مجهولٌ

رواية

د. جمال الجزيري

اسم الكتاب: نصف مجهول
اسم الكاتب: د. جمال الجزيري
تدقيق لغوي: د. جمال الجزيري
تصميم الغلاف: محمد إبراهيم
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2019 / 28866

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الفصل الأول

من أينَ كنتُ أجيء بسيارتي؟ أعرف هذا الرصيفَ وهذا السورَ جيِّدًا، وأبدو كما لو كنتُ أسير على الطريق من شقَّتي إلى مقرِّ عملي في هذه الجامعة. نعم!! أين الجامعة؟ هل حديقةٌ تلك التي بداخل السور؟

يشير لي شخص من نافذة باب سيارة وهو يُخرج رأسه مبتسمًا، ويبدو أنه يعرفني ويطلب منِّي أن أتوقَّفَ لنتحدَّثَ قليلًا. يهدِّئ الشخصُ الآخر الذي يقود السيارةَ سرعتَها، ولكنه يركب على الرصيف ويُكمل سيرَه ببطءٍ. سيارتي صغيرة ولا تستطيع ركوب الرصيف والسير عليه. لا، لن أسير وراءه. إن كان يريدني فليعدْ إليَّ على قدميه؛ فلا يمكنني أن أسير بسيارتي للأمام وأتوقف في منتصف هذا الشارع الذي أراه طريقًا سريعًا. ها هما يجيئان نحوي. يقولان سويًّا:

- أهلا بك يا دكتور
- أهلا بكما. كيف الحال؟
- يا دكتور، لم نحضر محاضرة الشعر منذ أسابيع.
- هل لديكما عذر كي أشطب لكما الغياب؟
- أي عذر يا دكتور؟ أنت الذي لم تحضر المحاضرة منذ أسابيع.
- نعم!! أي محاضرة؟ أحضر كل محاضراتي بانتظام.

- سلامتك يا دكتور! محاضرة الساعة السابعة والنصف في مبنى ٣٤.
- يا... ما اسمك؟
- اسمي؟ اسمي؟ نحن متأسفون يا دكتور، كنا نقصد الدكتور أبا زياد.
- وما اسمي؟
- كنَّا نظنُّك أبا زياد، فمعه سيارة مثل سيارتك بالضبط.
- أسألُكما: ما اسمي؟
- خلاص يا دكتور بقى، كما تقولون عندكم في مصر. حصل خير.
- خير في سلامة يا دكتور، كما تقولون عندكم في مصر أيضا.
- وسلامة ليس في خير.

*****

يبدو أنني في الاتجاه المقابل للاتجاه الذي كنتُ أسير فيه بسيارتي. لكن أين السيارة؟ أذكر أنني كانت لدي سيارة، وكان ذلك منذ دقائق تقريبًا، وكنتُ أسير واثقَ الخطواتِ أمشي طرفًا من الرؤيا. لكن يبدو أنني في حلم غريب، حلم يجيء لي بالشيء وعكسه في نفس الوقت وفي الوقت نفسه. وها هي الحديقة ظاهرة على يميني، وتبدو كما لو كانت حديقتنا، وكأنَّ ذلك الزمن الطويل "فَرْكِة كَعْب"! هي بعينها "حديقة الجاذبية" التي دخلتُها من قبل. ياه!! آآآه! كانتْ لحظةً عبقرية. كانت زمنًا عبقريًّا. زمن يتجسَّدُ حاضرًا أمام عينيّ، في قلبي: إظلام. صمتْ. حركة. تشكيل. كلام. إشراق...

*****

عندما يراني حارس البوابة يسألني:

- مَن الذي أتى بك في هذا الصباح؟

لا أستطيع أن أتبيّن نبرتَه أو موضوعَه من طريقة طرحه للسؤال. فلو سألني: "ما الذي أتى بك في هذا الصباح؟" فمن المؤكد أنه يسأل عن سبب مجيئي، وستكون في سؤاله نبرةُ استغرابٍ كأنه يستغرب أو يستنكر مجيئي إلى الحديقة في هذا التوقيت. فأسأله لأتحقّقَ منه:

- هل هذا سؤال خيرٍ أم سؤال شر؟

يقول لي مستغربًا:

- وما الذي يجعلني أسأل سؤالَ شرٍّ؟

أقول له:

- لا شيء، ولكنني أستغرب طريقة السؤال. هل أنا يجرِّكُني شخصٌ ويدفعُني لأنْ أجيءَ إلى هنا؟!

يردُّ عليّ:

- أنت أعلَمُ!

فأردُّ عليه:

- ولماذا تسألني عن ذلك الشخص؟

يقول لي بتأكيدٍ:

- السؤال بدرَ على لساني هكذا، ولا بدَّ أنَّ له مغزى.

أقول له بهدوء أو حيادٍ، دون أن أشعر بشيء سلبيٍّ تجاهَه:

- لا أعرف مَن. ولكنني ربما أعرف السبب. وجدتُني عندما استيقظتُ أرتدي ملابسي وتدفعني قدماي إلى هنا. رأيتُ في منامي الحديقة وأحسستُ بالانشراح والطرب، دون أن أسمع أغنية في الحديقة. وعندما استيقظتُ لم أجدِ الحديقةَ ولم أجدِ الانشراحَ ولا الطَّرَبَ. فقلتُ لنفسي: فلتذهبْ إلى الحديقة لتَطْرَبَ أو تنشرحَ وتعاينَها رؤيا العين.

يقول لي:

- مع أنني لا أثق في لغة الأحلام، أهلا وسهلا بك.

أقول له:

- ألن تسألني سؤالا حتى تفتح لي الباب؟

ينظر لي من جميع الاتجاهات، ويقول بنبرةٍ يحاول أن يجعلها تجمع بين المزاح والسخرية:

- هل شربتَ شيئًا قبل أن تنام؟

أقول له:

- لم أشرب شيئًا مما في بالِك. شربتُ الماء والشاي بالنعناع، وشممتُ رائحةَ ياسمين.

يقول:

- ولماذا تطلب مني أن أسألك سؤالا؟

أقول له:

- في حلم آخر، بعد حلم الحديقة، رأيتُ نفسي واقفًا على بابٍ أنتظرُ الدُّخُولَ، ولكنَّ الحارسَ لم يسمحْ لي بأن أخطوَ على العتبة المُوصِلَةِ إلى الباب إلا بعد أن سألني سؤالا لا أذكره الآن وأجبتُ عليه إجابة أعجبتْه ولا أذكرها الآن أيضًا.

يقول بنوع من نفاد الصبر أو الحدة:

- قلتُ لك إنني لا أثق في لغة الأحلام كثيرًا، لكنني أثقُ في أنَّكَ ما دامتْ قدماكَ أتتا بكَ إلى هنا فيحقُّ لك أنْ تدخلَ، فالطريق إلى الحديقة لا يسلكُها إلا المريدون؛ وما دمتَ سلكْتَها من تلقاءِ نفسِكَ ولم يُلْقِكَ عليها اضطرارٌ أو مطاردةٌ، فتفضّلْ ادخلْ من البابِ ولك داخلها ما تشاء.

يفتحُ لي الباب، وتعاودني صورةٌ من منام آخر رأيتُه في الليل أيضا، وهي صورة شجرة تين وشجرة زيتون وبينهما شجرة ليمون، فأقول له:

- شكرا على التين والليمون والزيتون. حلمتُ بهم وها أنا أكاد أشمُّ رائحتهم.

يقول لي ضاحكًا ومازحًا:

- أحلاما سعيدة بالداخل. اخطُ في سلام.

أشكرُه وأودّعه مبتسمًا وأنا أقول له:

- نلتقي في آخر النهار. حراسة سعيدة يا.... يا صديقي.

*****

هل هذه الحديقة تُكَبِّرُ الأحلامَ؟ يراودني حدسٌ الآن بأنني جئتُ إلى هنا لكي أرى الأحلام التي لا أذكر منها إلا أجزاء صغيرة، لأراها بكامل تفاصيلها وبوضوح شديد، وكأنَّ التفاصيلَ الدَّقيقةَ عنوانٌ على الحقيقةِ والصَّفاءِ وتجسيدٌ للرؤيا.

ها هو بابٌ بعد البوابة بقليل، في نهاية ممرٍّ يُحيطُ به الياسمين من الاتجاهين، وتمتزج به روائح الأشجار والنباتات العطرية، فتُنشيني. أقف أمام الباب منبهرًا. لا يوجد أحد ليسألني، ولستُ في حاجة إلى إجابة. تفاصيل البابِ تندَهُ عينيّ، ولا أعرف كيف تمكّنَ الفنّانُ الذي رسم هذه اللوحة على الباب من أن يُنَاغِمَ بين الأشجار والنباتات هكذا في لوحة واحدة، دون أن تشعر عيني بزحامٍ أو تشتُّتٍ أو ضياع، دون أن يلهو قلبي، دون أن يشرد عقلي، وكأن هذه اللوحة التي تقف متباهيةً وسط الطبيعة ذاتها تقول لمن يقف أمامها أو في حضرتِها:

ها أنا ذا. لا تعرفُ إن كنتُ أنا الأصل أم أنني الصورة!

امتزاج وتناغم في الألوان، في درجة الإضاءة، في الزهو، في الحيوية، وكأنك تكاد تشمُّ الرائحة الناتجة عن امتزاج روائح كلِّ هذه الأشجار والنباتات الحاضرة في لوحة الباب حضورًا كاملا. لوحة بلا حلقات مفقودة، ففيها كل التفاصيل، وكل الأدلة أو العلامات التي تقودك إلى الإحساس بالروابط بين عناصرها وبالتناغم بين كل هذه العناصر.

أغمض عيني وأخطو، فِأسمع صرير الباب، وأجدني داخل المستوى الثاني من الحديقة. لا أجد كلمة أكثر مناسبة من كلمة "المستوى" هنا، مع أنها تجعلني أحسُّ بوجه عام بأننا في لعبة ما ونصعد فيها من مستوى إلى آخر، ولكنه صعود هزلي أو افتراضي في النهاية. وفي الوقت ذاته، أحسُّ بأن المستوى هنا صعود وجزاء وبراح، فأحمد الله المنّان وأواصل خطوي.

أعرفُ لغةَ التِّينِ، لا أعرف من أين تجيء من ذاكرتي، هل من جهينة والتينة الذي زرعها أبي وارتبط بها حتى وفاته؟ أم هي تينة أخرى؟ أم خليط بينهما وبين تين يسكن ذاكرتي ولا وعيي؟ في كل الأحوال، أفهمها جيدًا، أو بمعنى أدقّ أحْدِسُها جَيِّدًا، من الحدس. هي لغة تجمع ما بين البريق والتألُّقِ والغوايةِ والاستلال، الاستلال بمعنى أنها تستلُّ منّي ما يؤرّقُني وما يُقلقُني وما يوتّرُني، وربما تستلُّ مني أيضا التجاعيدَ التي بدأت في الظهور على جبهتي. هي لغة تخطو بك أو تنقلك للوراء، وربما للأمام، خطواتٍ في الزمن وربما في المكان، وكأنها تؤهِّلُكَ لأن تلتقي نفسك صافيًا ومتألِّقًا ومتوهِّجًا.

أستريحُ تحت شجرة التين، ربما ساعة وربما أكثر وربما أقل، وكأنني لا أعرف مقدار الساعة. أنام على ظهري وأتأمَّلُ شجر التين أعلاي وحولي. ثمارٌ تومئ لي، ثمارٌ تتدلّى إلى متناول يدي، ثمارٌ تقطّر لَبَنَها على جبهتي، ثمارٌ تمدُّ يدَها وتربّتُ على كتفي. أحسُّ بأن شجرة التين لها حضنٌ، وهذا الحضن له ظلٌّ أو امتداد، فيحتضنُني حضنُها ويمتدُّ ظلُّها ليُدَثِّرَني بالكامل، فأغفو، ولا أعرف إن كان الفعل أغفو دقيقًا أم لا، بمعنى أنني أدخل في المنام ذاته، كأنْ تنسابُ الصورُ أمامَ عينيك أو داخل عينيك المغمضتين وترتاح أنت للدغدغة، فلا تعرف إن كانت هذه الدغدغة حقيقية أم أنها تحدث في خيالك. لا تعرف إن كنتَ أنت سافرتَ دون أن تدري في الزمن أو في المكان أو أي شيء لتصل إلى مصدرها أمْ أنَّ مصْدَرَها هو الذي انتقل إليك ليمزج بين مكانك ومكانها، بين زمانها وزمانه، أو إلى زمن مشترك بينكما لا تعرف إن كان زمنًا ماضيًا أم زمنًا سيجيئ!!

يخطر لي أن أترك نفسي لهذه الدغدغة إلى أن يشاء الله. ولكنني أحسُّ بهاجسٍ ينغزُني، كأنه يوقظُني من نومٍ لا أريد أن أستيقظَ منه، وأسمع صوتًا يقول:

- الليمون الليمون. قلبك في حاجة إلى دواء، وهذا الليمون فرصة نادرة.

فأستيقظُ مُسْرِعًا، كأنَّ منبِّهًا رنَّ ونظرتُ إلى الساعة فيه فوجدتُ أن جرسَه جرسُ غفوةٍ وأنني لم أستيقظْ عند سماع الجرس للمرة الأولى.

أين الليمون؟ أشمُّ رائحتَه متميّزةً بالرغم من اختلاطها بروائح أخرى. أتتبَّعُ الرائحة، ويبدو أن حاسة الشمِّ لديّ صَفَتْ هي الأخرى وصارتْ قادرة على تمييز عشراتِ، وربما مئاتِ، الروائح المختلطة ببعضها. أحسُّ بأن الرائحة تتخذ شكلا مكانيًّا، أو تتحوّل إلى مكان، وأحسُّ بها دربًا طويلا تحيط به الأشجارُ من الجانبين ومن أعلى، فتتشابك أغصانها فوق هذا الدرب الذي بدأ يرتسم واضحًا في رأسي، وبدأتْ أنفي تبصرُه بشكلٍ كاملٍ ومتجسِّمٍ، فأترك لنفسي الحريَّةَ في أن تقودني إلى شجرة الليمون.

وبينما أسيرُ، أسمعُ لغةً مبهمةً، لا أظن أنها بحروف بشرية، وأظن أنها لغة الثمار، ثمار كل الأشجار، وكأنها.. أو أنني صرتُ واعيًا بصوتها، فمن الواضح أن هذه لغتها المعتادة، ولكنني أسمعها لأول مرة، ولم أسمعها عندما دخلتُ من البوابة الأولى، ولم أسمعها بعدما دخلتُ من الباب الداخلي وجلستُ أو رقدتُ على ظهري تحت شجرة التين. صحيح أنني كنتُ أحسُّ بمستوًى صوتيٍّ للدغدغةِ، ولكن ذلك الجانب الصوتي لم يكن قد تشكَّلَ في لغة، كأنه خميرة أصوات أو خميرة لغة لم تنضجْ أو تختمرْ بعد، ويبدو الآن أنها اختمرت، أو أن الحاسَّةَ التي يمكنها أن تلتقط هذه الأصوات داخلي اختمرتْ أو نَمَتِ الآن وبدأتْ تلتقطُ هذه اللغةَ العجيبة التي لا أفهم منها شيئًا، ولكنني أحسُّ بنوعٍ من الاسترخاء، نوعٍ من الحلم، نوعٍ من السَّكِينَةِ ذات الجانب الطَّرَبِيّ، سكينة الروح والهدوء والاسترخاء، وهناك شيء لذيذ في أذني، وأحسُّ بأنه

نوع من التسخين، بمعنى... لا أعرف كيف أصفه، ولكنه نوع من... كأنه يحمِّسُ هذه السَّكِينَةَ كي تصعدَ إلى مستوى أعلى، مثل النقرات الموسيقية التي تبدأ بطيئةً، بطيئة، ثم تتسارع تدريجيًّا إلى أن تنقل الروح إلى مسار دائري ونشوةٍ جذّابة، بمعنى أنها تجذب الروحَ لأعلى لكي تحلِّقَ. هذا ما أحسُّ به نحوَ أصوات الثمار، أصوات الفواكه، لا أعرف إن كانت كلها فواكهَ أم لا، لكنها أصواتٌ نباتيَّةٌ، فلنتفقْ على هذا الاسم، أصوات نباتية تغذّي روحي وسكينتي، مع أنني لست شخصًا نباتيًّا ولا أظن أنني سأكون نباتيًّا في يوم من الأيام، فهكذا نشأتُ، وهذه النشأة لها ذاكرة، لها تاريخ بالنسبة لي، فلا أظن أنني سأنقطع عن عاداتي الغذائية، لأن الإنسان بوجه عام يحب تكرار الخطوات التي قطعها من قبل، الأكلات التي أكلها من قبل، ليس حنينًا خالصًا، وإنما كي يشعر بنوع من الانسجام، بنوع من الاستمرارية، بنوع من التواصل في حياته، وأنه مازال على الدرب، مازال يواصل الحياة، مازال يُثري نفسه، لديه ذاكرة، لديه حنين يمكنه أن يشبعه في أي وقت، ولا يوجد عائق يمكنه أن يقطع طريق هذا الحنين، وما إلى ذلك...

يبدو أن هذه الأفكارَ في رأسي – محاولة التكهن، محاولة الوصف، لا أعرف ما هي بالضبط – يبدو أنها تُسَارِعُ خطواتي نحو أو على طريق الليمون، ولا أعرف دلالة الليمون بالضبط، ولكن – كما سمعتُ صوتًا من قبل – يبدو أن هناك شيئًا ما فيّ، أن هناك خللًا ما فيّ يحتاج إلى الإصلاح، أنَّ هناك مرضًا

داخلي لا أعرفه يحتاج إلى شفاء، أي شيء من هذا القبيل، وكأن لقائي بالليمون لقاء قَدَرِيٌّ، علامة أُلْقِيَتْ في طريقي لأهتدي بها إلى ما ينقصني ولم أكن أعرفه من قبل، وأنا شخصيًّا أؤمن بذلك، بالعلامات، بالأحاسيس المبهمة التي تراودني أو تحدس لي، أو حتى بالأشياء المبهمة التي تظهر لي في الحلم ولا أذكر منها شيئًا، سوى النُّذُر القليل كما يقولون، فأبدأ في تتبُّعِ هذا النذر القليل لأصل من خلاله إلى شيء أدركُ فيما بعد أنه كان ينقصني بشدة، ولولا وصولي إليه لكانت قد حصلت أشياء سيئة، أشياء غير حميدة..

ها أنا أحس باقتراب الليمون، فيزداد تسارع أصوات النباتات والأشجار في أذني، كأنَّ الرائحةَ التي كانت تتخذ شكلَ دربٍ من قبل – وما زالت تتخذ شكل الدرب أو الطريق – تشكَّلتْ أيضا في شكل... ليس حبلًا وليس خيطًا، شيء لا يدل على التقييد، وإنما شيء يدل على المغناطيس، خيط من روائح، من رائحة تظلِّلُها أو تحيط بها روائحُ أخرى، رائحة الليمون، ويتجسّد في شكل المغناطيس أو خيطِ نورٍ أو خيطٍ فضّيٍّ... خيطٌ ليمونيٌّ يسحبني لآخذَ الليمونَ بقوةٍ، ولا أعرف معنى "آخذ الليمون بقوة"! هناك نوع من الجبروت لا أعرف ما هو أو ما طبيعته، وأحسُّ بالروائح... يقولون "تمسك بتلابيبي"، أن تمسك بتلابيبي أو بصدري أو بقميصي، فهذا فيه نوع من القوة، نوع من العنف، نوع من التهديد، نوع من اختلال ميزان القوى. وأنا لا أحس بذلك، ولا يمكنني أن أصف الروائح بأنها تمسك بتلابيبي. أنا أحس بالروائح تشدُّني

من قميصي بقوة كأنها عاشقة تريد أن تذوب في صدري، يتملّكُها نورُ الحبِّ فتريد أن تفيضَ بقدْرٍ من هذا النور في جسمي وفي صدري وفي قلبي وفي كل شيء. هذا هو المعنى الذي أحسُّ به وأقول "آخذ الليمون بقوة"، وبهذا المعنى يمكنني أن أقول: "يأخذني الليمون بقوة، آخذه ويأخذني"، ولا أعرف لماذا يخطر في بالي الآن فكرة المَصْل، فكرة العقار، أنا أحتاجه لأن بي مرضًا ما، كما سمعتُ ذلك الصوت من قبل يقول ذلك. وأحسُّ في نفس الوقت أنه يحتاجني لكي يوسّع دائرةَ شفائه، بمعنى: كأن بالليمون شيئًا ينقصه ويريد أن يحصل عليه لكي يتعرّف على كل احتمالات الشفاء، وبالتالي يصير فيما بعد رمزًا للشفاء الكُلِّيِّ. لا أعرف ما الشفاء الكلي، يصير رمزًا للشفاء كفكرةٍ، كجسدٍ، كروحٍ، كتجسيدٍ لفكرة الشفاء ذاتها.

ربما لا أستطيع أن أعبِّرَ جيِّدًا. هي مشكلة اللغة، أنك تحس بأشياء لا تستطيع – مهما أوتيتَ من فصاحة، من تبحُّرٍ في اللغة، من القدرة حتى على اختراع ألفاظ جديدة – أن تعبِّرَ عن هذا الفيضان للمعنى، عن هذا الحضورِ الكُلِّيِّ الذي يطغى عليك وتجد أنه يفوق قدرتك على الاحتمال، قدرتك على التعبير، قدرتك على التفسير، قدرتك على التأويل، فتترك نفسَك له لتستمتع به في حد ذاته، دون أن تكدِّرَ نفسك بفشلِكَ في التعبير، بفشلِك في إيجاد الألفاظ والتعبيرات التي تستطيع أن توفيه حقه.

أهزُّ رأسي. أفركهما وأفتحهما. هل هذا ليمون؟!! أعرف الليمون شجرة ذات ثمار شبه دائرية أو بيضاوية وهي من الحمضيّات. أعرفُ أنَّ هذا التعريفَ تعريفٌ غبيٌّ، ولكنَّ الإنسان يحتاج أحيانًا إلى أن يضع يده على مثل هذه التعريفات الغبية حتى يقيس ما أمامه. الرائحة رائحة ليمون. الأوراق أوراق ليمون. جميل! الشجرة شجرة ليمون. أين الليمون؟! هذا ما يجعلني أرتبك، كأنني في مَعْرَضٍ – ولم أرَ مَعَارِضَ مثل هذا المعرض من قبل – لكل الوجوه التي قابلتُها في حياتي، ففي موضع كلِّ ثمرةِ ليمونٍ إنسانٌ مُصَغَّرٌ تتضح ملامحُه جيِّدًا. وجوهٌ كلها أعرفُها، أيًّا كانت طبيعة معرفتي بها أو علاقتي بها أو قربي منها أو بُعدي عنها، وكأنَّ هذه الشجرة دفترٌ، تشبيهٌ على البعد، محاولةٌ لتقريب الصورة. دفترٌ يسجّلُ فيه شخصٌ ما كلَّ مَنْ رآهم في حياته، نوع من اليوميَّات، ولكن بدلا من الكتابة يرسم كلَّ الأشخاص الذين قابلهم في يومه منذ استيقاظه حتى وصوله إلى ما قبل النوم، وفي اليوم التالي يفعل نفس الشيء، وهكذا...

ثمار هذه الشجرة عبارة عن أشخاص، أو مُصَغَّرَات، مجسَّمَات مصغَّرَة للأشخاص الذين قابلتُهم في حياتي، ولكنها ليست مجسَّمات بمعنى الكتل الصامتة أو الكتل الخرساء أو الميتة أو المحنَّطة؛ ففيها حيوية، فيها حياة، أحس بحركة العين، أحسُّ بالابتسامة، أحس بحركة اليد التي ترحّب بي أو حتى تشجب.. كأنها تنفِّضُ يدَها لي أو تقول لي: "انصرفْ".

بعض الوجوه أعرفُها تمامًا، كأنها قريبة منّي للغاية. وبعضها الآخر أذكرُه من خلال التعرُّفِ، بمعنى أنني ربما لم أكن أذكره من قبل، ولكنني عندما أراه الآن أتذكّرُه على الفور، وكأنَّ وجهَ الشَّخْصِ الذي أراه مفتاحٌ لبابٍ أو نافذةٍ أو أيِّ شيءٍ في ذاكرتي أو على ذاكرتي. وهناك وجوهٌ يصعُب عليّ في البدايةِ أن أتعرّفَ عليها، ولكنها تعطيني سلسلةَ مفاتيحَ كاملةً لذاكرتي، وتعطيني مفتاحًا وراء مفتاحٍ إلى أن أضعَ يدي على الحلقات المفقودة في ذاكرتي وأتعرّفَ عليها.

الوجوه التي أعرفُها جيِّدًا هي الوجوه القريبة من قلبي والتي أتمنى أن أراها لأن هناك وجوها... لا أقول إنها سقطتْ من على طريقي، ولكن حدث خللٌ أو سوءُ تفاهمٍ أو أي شيء من قبل جعلَ دروبَها مختلفة عن دربي.

الوجوه التي أتعرّف عليها بسهولة لا تقع في المستوى الأول من الأغصان الذي يظهر أمام عيني مباشرة، وإنما وراءها.

والوجوه التي أتعرّف عليها من خلال سلسلةِ مفاتيحَ ومن خلال ملءِ الحلقاتِ المفقودةِ توجد في الخلف تماما، ليس في خلف الشجرة، وإنما داخل الشجرة، فعندما ألفُّ حول الشجرة من جميع الاتجاهات، تظهر أمامي مباشرة الوجوه التي أعْرِفُها جيِّدًا أو أرتبطُ بها أو أحنُّ إليها أو أفتقدُها... أي الوجوه التي تمثّل لي أهمية كبرى.

والغريب أنني أرى بعض الوجوه التي كانت علاقتي بها عدائية، أو كانوا خصومًا لي، أو عرقلوا طريقي بشكل أو بآخر، أجد هذه الوجوه حاضرة وأجدها مبتسمة أيضًا. ما الذي أحْضَرَها إلى هنا؟ أنا شخصيًّا أطرحُ أو أحذفُ من رأسي أوَّلًا بأوّلٍ كلَّ مَن يسبِّبُ لي تنغيصًا، كلَّ مَن يولِّدُ مشاعرَ سلبية داخلي، لا أشغل بالي بالمنغّصاتِ، لا أسمح لأي أحد أن يفسدني، بمعنى أنني لا أسمح لشرِّيرٍ أن يجعلني شرِّيرًا مثله، لا أسمح لتافهٍ أن يجعلني تافهًا مثله، لا أسمح لأنانيٍّ أن يجعلني أنانيًّا مثله، وهكذا. وبالتالي أنظّفُ ذاكرتي أوَّلًا بأوَّلٍ، ولا أترك فيها أحدًا من هذا القبيل أو من هذه القبيلة.

ولكنني أراهم جميعًا الآن! ما معنى هذا؟! وما علاقته بالشفاء؟! ما علاقته بهذه الجاذبية التي كانت تسحبني وراءها، أجذبُها وتجذبني، على درب الليمون، ونحو شجرة الليمون؟! لا أعرف، ولا أريد أن أفسِّرَ تفسيراتٍ من قبيل: إنني ميِّتٌ الآن أو أنني على وشك الموت، تجربة اقترابِ الموت أو تجربة الحشرجة أو تجربة... لا أعرف المصطلح الذي يُستَخْدَم بالضبط، ولكنني الآن لستُ ميِّتًا: صحوتُ في الصباح، وجئتُ نحو الحديقة، مع أنني لا أعرف مكانها، ولكنَّ صوتًا ما كان يوجِّهُ خطواتي، ورائحةً مبهمةً كانت توجِّه أنفي، وقابلتُ حارسًا، وهذه الأشجار حيَّة وأنا حيٌّ. قد تكون هناك غرابة في الوصف لأنني لا أستطيع أحيانًا أن أجد الألفاظ التي تستطيع أن تعبِّرَ عمَّا أراه أو أحسُّ به يتزاحم داخلي وخارجي بحيث لا تستطيع الألفاظ أن تمسك

به في كلِّ زخمِه أو ازدحامه أو عنفوانه، وكأن المعنى عملاقٌ والكلمات أقزامٌ صغيرة لا تقوى على شيء.

هذه رائحة عبقرية تُخرِجك عن طورك أو طبيعتك، أو ترفعك درجة أو درجات فوق الحياة المعتادة التي تعيشها. في أحيان نادرة، عندما أسمع أغنية ما، أو أغمض عينيّ وأتتبّع خيوطَ قصة ما، أحسُّ بهذا العلوِّ، فقد نقول إنها تجربة حياتية بالنسبة لي، ولا تدل على موتي أو أي موت.

أتأمل كل الوجوه. أمدُّ طرفَ إصبعي وأحاول أن أسلّم عليها فردًا فردًا. الوجوه الموجودة في المستوى الأول، والتي قلتُ من قبل إنها أقرب لي، سواء على مستوى الواقع أم الحنين أم الماضي أم الذكريات أم المستقبَلِ – أيًّا كان – أحاول أن أقبِّلَها، دون أن تجرحني أشواك الليمون.

والوجوه التي بالداخل، طبقات وراء طبقات، أو أغصان وراء أغصان، فأحاول أن أمد إصبعي لأسلّم عليها، إن استطعتُ إلى ذلك سبيلًا دون أن تجرحني الأشواك، أو أمد إصبعي من بعيدٍ باتِّجَاهِهَا كأنني أسلِّمُ عليها، وأجدها أيضا تمد أصابعَها الصغيرة وكأنها تسلِّمُ عليّ سلامًا من بعيدٍ لبعيدٍ، سلاما عن طريق الرموش.

أما بالنسبة للوجوه التي على الأغصان الأولى، فمن السهل أن تقبّلها أو تسلّم عليها، لأنك في النهاية تمسك الوجه ككل أو الجسم ككل وتقرّبه من فمك

وتقبّله بعيدًا عن هذه الأشواك، لأن هذه الوجوه في طرف كل غصن، وليست محشورة أو نابتة في منتصف الغصن، وبالتالي لا تحيط بها الأشواك، وهكذا.

نفس الهاجس الذي أحسستُ به عند شجرة التين، هاجس يقول لي:

- كفاك وإلا ستسْكَر وتضيع في الحديقة، دون أن تستطيع أن تعود إلى البوابة، دون أن تستطيع أن تعود إلى أحبابك ومَن هُم في رعايتك، فلا تطمعْ، ولا تسرقْ شيئًا، واخرجْ في سلام.

أسرق!!! ما معنى "أسرق" إن كانت لي حرية التجوال في كل هذه الحديقة والقطف منها؟ وأظن أن الذي كان على البوابة قال لي أو عبّر عن شيء من هذا القبيل.

أسمع الصوت كأنه سمعَ أفكاري وكأنه يردُّ عليّ:

- لا تأخذ شيئًا معك. لا تحنّطْ هذه اللغة الطَّرَبِيَّةَ، هذه اللغة النشوانة، هذه اللغة الجاذبية.

أقول له:

- هل تقصد اللغة الجذّابة؟

يقول لي:

- افهمْ ولا تتعجّلْ كلامي. أقول لك "اللغة الجاذبية". لو هناك لغة جذابة، فهذه التي أمامك وحولك وفي قلبك هي اللغة الأم، اللغة الجاذبية، فلا تحنّطْها، وهيّا اخرجْ في سلام، قلبُك امتلأ، وأنفُك امتلأتْ، وعينُك

امتلأتْ، وروحُك كلها امتلأتْ بهذه الجاذبية، فلا تبخلْ بها على أحد. سلامٌ، سلامٌ، سلامٌ.

كأنَّ هناك مغناطيسًا يجذبني، فعندما يقول "سلام، سلام، سلام"، أجد عينيّ تغمضان، وأجدني أسير وكأنَّ أحدًا يقودني، كأن حارسًا ما يقودني نحو بوابة الخروج، فأجد نفسي أسير وراءَه وأستمتعُ بإغماض عينيّ، كأنني أخزِّنُ كلَّ شيء: الروائح المتجسِّدة، اللغة الجاذبية التي أحسُّ بها في أذني وقلبي، التين، الليمون، طعم التين، كل شيء. وأجد نفسي عند بوّابة الخروج. ألقي السلام على الحارس، وأسألُه ممازحًا:

- مَن الذي جاء بكَ في هذا الصباح؟!

فيبتسم ويشير لي مودّعًا، دون أن يردَّ على مزاحي.

الفصل الثاني

هل عدتُ إلى زمن قديم أم أن الزمن القديم جاء إليّ هنا؟ وفي الوقت ذاته أحسُّ بأن هذا السور الذي يحيط بالحديقة هو سور جامعة القاهرة، وأنني أُهِمُّ بالدخول لأقطف من ثمار عِلْمِها. لم أدخلها منذ سنوات طويلة، منذ أن نفّض لي ذلك الأستاذ بيديه مع أنني كنتُ على موعد معه لتسليمه خطة الدكتوراه، ومع أنني كنتُ أنتظره أمام مكتبه منذ ساعات، ومع أنه كان يراني وهو يجلس مع طالبة من طالبات الليسانس لساعاتٍ. وعندما خرجَ من مكتبه وخطوتُ نحوه، أشار لي بيده، قائلا:

- لستُ فارغًا لك يا سيد.

قلتُ له:

- ليس اسمي سيد!

قال لي:

- قلت لك: لستُ فارغا لك يا سيد.

فنظرتُ إليه بابتسامة صافية وقلتُ له:

- أنا آسف يا سيدة.

وجريتُ قبل أن ينادي أحدًا من الحرّاس.

وفجأة تحوّل سور جامعة القاهرة إلى سور مصمت بلا بوابات وبلا منافذ، وكأنني وقعتُ في شرِّ أعمالي أو أعمال أحدٍ لا أعرف عنه شيئًا. كانت هتافات حولي تتزلزل داخل السور: هتافات تطالب بالسقوط، وهتافات تتوعّدُ أحدًا لا أهتم به في الغالب، وهتافات تنادي بسقوطي وسقوط كل الطلاب المارقين، وهتافات تسخر من كل هذه الهتافات. فرقُ أمنٍ تسدُّ البوابات من الداخل لتمنع خروج الهتافات للشارع، وفِرق تسد البوابات من الخارج لتمنع دخول المكتظين بالخارج. وسرعان ما اشتبكتِ الأيادي داخل السور، وعلت الأصوات بضرورة الالتزام بهتاف واحد. قال قائل:

- هي كلمة واحدة.

قال آخر:

- الكلمة التي تصير كلمتين يحملها اثنان.

قال ثالث ساخرًا:

- أنا حملتُها وحدي ولم يختل شيء.

قال رابع:

- هي كلمة ولا تحتمل هذه السخرية. السخرية لَهْوٌ.

قال خامس:

- هذا اللهو الخفي لا يريد أن يرحل عن المدينة.

قال سادس:

- مدينة الضباب أم مدينة النعاس؟

قال سابع:

- الضباب لا يجتمع مع النعاس.

قال ثامن:

- اجتمعا من قبل ورأيتُهما بعيني هذه التي سيأكلها الدود عندما تموت هذه المدينة.

قال تاسعٌ محتدًّا:

- المدينة لا تموت. قد تمرض، نعم، لكنها لا تموت.

صرختُ فيهم:

- أنا الذي سأموت هنا إن لم أَخْرُجْ حالًا. ما كل هذا العبث؟ رئتاي لا تحتملان السيدة وتحتملانكم معًا.

التفتوا جميعًا لبعضهم البعض وتبادلوا نظرةً أحسستُ فيها قدرًا من التهديد، وقالوا بصيغة أحسستُ بأنهم متفقون عليها:

- من أنت أيها المارق حتى تتأفف رئتاك منّا؟ رأيناك بأعيننا وأنت تقف كالكلب حارسًا على باب مكتب السيدة، دون أن تتململ أو تحس بالخزي.

قلتُ لهم:

- لم تكن سيدة.

قالوا:

- احلفْ!

قلت:

- لستُ في حاجة لأن أحلف. لكن أقسم لكم أنها لم تكن سيدة.

قالوا:

- كيف نكذّب أعيننا ونصدّقك؟!!

قلتُ لهم بهدوء بعد فراغ صبري:

- لا تصدِّقوني ولا تكذّبوني. أنا سأرحل.

ضحكوا جميعا ضحكات عالية هزَّتْ أرجاء الجامعة لدرجة أن فِرَقَ الأمنِ ذاتها استغربتِ التحوُّلَ في المشهد وجاء بعضهم نحونا ليشهدوا هذا التحول في الغالب.

بتر الطلابُ ضحكاتهم عندما وصل إلينا رجال الأمن. وتبادلوا نظرة صامتة فيما بينهم، وكأنهم كانوا يريدون أن يموّهوا الكلمات في أعينهم كي لا يتعرّف عليها رجال الأمن. ولكنهم بعد لحظات أشاروا نحوي وقالوا بصوت واحد:

- هيا اصعد إلى الكرسي.

التفتُّ حولي مبتسمًا وسألتُهم:

- أي كرسيٍّ يا أولاد التيييت؟!!

استدار بعضهم نحو الطلاب المتحلقين حولنا وأزاحوهم بأيديهم ليظهر كرسيٌّ وحيدٌ على خشبة تشبه خشبة المسرح في مسارح قصور الثقافة أو مسارح الجامعات. صرختُ فيهم:

- لماذا أنا؟ صحيحٌ أنني أحبُّ التمثيل وأتمنى لو أترك وظيفتي في الجامعة في يوم من الأيام وأعمل بالتمثيل، لكن خشبة المسرح هذه تشبه الآن المقصلة.

ضحكوا جميعا وضحك رجال الأمن، وجاء نحوي رجل أمن ومال نحوي كأنه يتكلم معي كلامًا لا يريد لأحد أن يسمعه مع أنه لم يقل لي كلمة واحدة. وبعد ذلك، قال للجميع:

- هو عرف خطأه يا شعب، وسيصعد إلى الكرسي من تلقاء نفسه. لا يمكن إجبار أحد على فعل شيء في هذا العصر الجديد.

ونظر نحوي وقال:

- هيا اصعد يا بطل.

وردد الجميع وراءه هذه العبارة عدة مرات بنبرات تزداد حماسة في كل مرة لدرجة أنني أحسستُ أن من واجبي الوطني العظيم أن أصعد كالأبطال إلى الكرسي. سمعتُ صوتًا في مؤخرة رأسي يقول لي:

- لا تصعد. إنها مصيدة.

ولكنني هززتُ رأسي لذلك الصوت وكأنه صوت الشيطان الرجيم، وحبستُه في الدرك الأسفل من رأسي. في الحقيقة، أحسستُ بأن الخشبة ما زالت تحمل

طابع المسرح وأنني يمكنني أن أبلور الواقع كله في هذا المشهد على الكرسي من خلال السخرية والتقمُّص والتلاعب بالألفاظ ونسف الأساس الذي يقوم عليه الموقف بأكمله.

انحنيتُ في جميع الاتجاهات كأنني أحيي الجماهير العريضة، ثم أديت التحية الشعبية للجماهير بمن فيهم رجال الأمن وصعدتُ راضيًا.

حركتُ بصري في مجال ١٨٠ درجة أمامي وبجانبيّ، دون أن أنظر للوراء إلى المائة وثمانين درجة الأخرى بالطبع، فأحسستُ بأن شخصيتي على الكرسي لا تسمح لي بالنظر للوراء، مع أنني لا أعرف ما يوجد وراء الكرسي، لكنني لم أظهر جهلي هذا في نظرتي الجوّالة، وقلتُ لنفسي: "ربما قادني تقمّصي للشخصية فيما بعد إلى معرفة النصف المجهول".

سألني أحد الطلاب:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

نظرتُ إليه نظرة غبيّة، أي أنها تنظر إلى سؤاله على أنه سؤال غبيّ. ابتسمتُ ابتسامة خفيفة، وقلتُ:

- ألن تغيّر سؤالك وتقول: من الذي جاء بك في هذا الصباح؟

نظر لي متجهّما وقال:

- نحن الذين نسأل الأسئلة الآن، ولا يحق لك أن تسأل إلا بعد أن تكمل الإجابة على جميع أسئلتنا. ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ابتسمت وقلتُ له:

- مع أنني لم أبدأ إجاباتي حتى أكملَها، سأجيبك مباشرة وأقول: جئتُ لأعرض خطة الدكتوراه على أحد أساتذتي.

نظر إليّ مصدومًا، ورأيتُ نظرة تذمُّرٍ في وجوه كل المتحلقين حول خشبة المسرح في نصف دائرة. يبدو أنه لم يتوقع هذه الإجابة مع أنها إجابة صريحة وصادقة جدا. ويبدو أنهم كذلك. وتأكد توقُّعي هذا من خلال كلامه:

- يا بني، أنت الآن على الكرسي ولا يمكنك أن تجيب إجابات مباشرة هكذا. سأسأل السؤال مرة أخرى، والمطلوب منك أن تجيب إجابة تتناسب مع الكرسي ومع المسرح، إجابة غير مباشرة وتحاول أن تضيف للموقف عمقًا وتعقيدًا ودبلوماسية. هل اتفقنا يا... ما اسمك؟

قلتُ له:

- اسمي رائد وأمي تناديني باسم شريف.

قال لي:

- لا شأن لنا الآن بأسماء أمك يا رائد، لا، لا، اسم ر ائد لا يتناسب مع هذا المقام. سأختار لك اسما يناسب الكرسي. ما رأيك في اسم كارس، كي يكون اسمًا على مسمّى؟

قلتُ له:

- لكنه اسم لا يليق بي. تحسُّ بأنه مثل شافط، لاقط، كاشط...

قاطعني قائلا:

- هذه أسماء أسميتموها أنتم وآباؤكم.

سألتُه باسمًا:

- من نحن؟ ومن آباؤنا؟

ارتبك، ولكنه سرعان ما أخفى ارتباكه ومال نحو أذني هامسًا:

- لا تدقق في كلامي هكذا. هؤلاء كبّروني، فلا تأتِ أنت وتصغّرني أمامهم. لا تدقّق في كلامي، وهذا المعروف لن أنساه لك ما مُتُّ.

وأعلى صوته قائلا:

- هذا الاستهتار لن أنساه لك ما متُّ. أموت أموت وتعيش هذه الجامعة.

رددوا وراءه:

- تعيش، تعيش، تعيش.

نظر حوله وعندما وجد صدى الهتافات يتردد في أرجاء الجامعة داخل الأسوار، قال:

- تعيش هذه الخشبة.

رددوا وراءه بنبرة حماسية أعلى:

- تعيش، تعيش، تعيش.

فكر قليلا، ويبدو أنه كان يحاول استغلال هذه الهتافات، وقال:

- يعيش هذا الكرسي.

هتفوا جميعا:

- يعيش، يعيش، يعيش، يعيش، يعيش.

نهضتُ من على الكرسي، وقلتُ بنبرة أقرب للهتاف:

- أموت أنا يا شيخ.

فضج الجميع بالضحك.

وهنا جاء الضابط الذي كان يمثّل أنه يهمس في أذني من قبل، وأشار بيده إشارة بترتِ الضحكات. وقال:

- الاعتراف سيد الأدلة. هو أقر بأنه يستحق الموت. أنتم الشعب والقرار قراركم. تحية إجلال وتقدير وتعظيم لكم، أيها الأبرار الأخيار الصالحون. لكم الآن القرار، ولكم المداولة.

وأشار بيده إلى أحد الطلاب. ضرب الطالبُ بقدمه على خشبة المسرح وأدّى لي التحية الشعبية وقال صائحًا وجازمًا:

- محكمة.

أحسستُ بأن هناك إظلاما على خشبة المسرح، تبعَه نورٌ يومض ثم يختفي، ثم يومض. وتم إسقاط الضوء على مسافة تبعد عن الخشبة مسافة خمسين مترًا تقريبًا، وبعدها بلحظات تمكَّنْتُ من رؤية أستاذي قادمًا، وعلى يمينه الطالبة التي رأيتُها معه في المكتب منذ قليل، وعلى يساره طالبة دكتوراه تعرفتُ عليها

منذ شهور. أخذ الضوء يتحرك معهم إلى أن وصلوا إلى خشبة المسرح. وهنا قال طالبٌ آخر وهو يؤدي التحية العسكرية للأستاذ:

- محكمة.

نظر الأستاذ يمينا ويسارًا، ولا أعرف إن كان ينظر إلى الطالبتين أم يبحث عن شيء. ولكنني خمنتُ أنه يبحث عن شيء آخر عندما أشار إلى الطالب الذي أدى التحية العسكرية وطلب منه أن ينزل يديه، وقال:

- أين هيبة المحكمة؟

بدا على الطالب الارتباك، وأحسستُ أنه يقول لنفسه إنه أدى التحية كما ينبغي وقال كلمة "محكمة" بكل تقمُّص، ويبدو أنه ارتبك لأنه لم يفهم سؤال الأستاذ أو لم يستطع أن يضعه في سياق مناسب. ويبدو أن الأستاذ أدرك كل هذا، فهو أستاذ على كل حال. ولذلك قال للطالب مداعبًا:

- هل ستجلس هيئة المحكمة على الفراغ؟!

صمت الطالب ويبدو أنه لم يُرِدْ أن يقول شيئًا يستدعي سؤالا آخر من الأستاذ أو استنكارًا. فقال الأستاذ موجها كلامه للجمهور:

- هل سنجلس على الفراغ يا شباب؟ أنتم الأمل والورود التي تفتحت في حدائق هذه الجامعة. لا تزعجوا أنفسكم بالتفكير في مثل هذه المشكلة العويصة. لا بد أن نفكِّرَ خارج الصندوق، ولا بد أن نعتمد على أنفسنا. هذا عصر لا يحتمل الاتكال.

وأخرج عصاةً صغيرة من جيب سُترته، تشبه عصاة السحرة في فقرات المنوعات ومسلسلات الأطفال بالتليفزيون، ونظر إليها بإعجاب كأنه يكتشفها لأول مرة، أو لم يستخدمها من قبل، أو لا يعرف كيف يستخدمها، ولكن كان من الواضح عليه أنه يشعر باللذة وهو ينظر إليها. أخذ يحركها يمينًا ويسارًا، وارتفاعًا وهبوطًا، ومن الواضح أنه كان يقلد مايسترو في فرقة موسيقية، والغريب أن الجماهير كانت تتحرك مع حركة عصاته يمينًا ويسارًا. اتسعتْ ابتسامتُه لنفسه في الغالب، وقال:

- لا بد أن ننوّع استخدام هذه العصاة. ولكنه عصر جديد ولا يمكننا أن نعود إلى الدجل والسحر والشعوذة.

وأخذ يشير بعصاته نحو بعض الأشخاص الذين يتميزون بقوة الجسم وضخامته، فتحركوا نحوه باسمين، وقال لهم باسمًا:

- هل ستجلس هيئة المحكمة على الفراغ يا شباب؟ أم أنكم لديكم الفكر الإبداعي الذي يمكّن هيئة المحكمة من الحفاظ على هيبتها؟

قال أحدهم:

- أوامرك يا بروفسير. هيبتُنا من هيبة المحكمة.

وانحنى ثلاثتُهم وحملوا الأستاذ والطالبتين على أكتافهم. قال الأستاذ:

- لا بد أن نتلوا الآن صحيفة الدعوى وقائمة الاتهامات.

همَّ الطالب الأول، الذي سألني من قبل عما أتى بي إلى هنا ولم يعجبه أن اسمي رائد، بالكلام، ولكن الأستاذ أشار إليه بعصاته، فصمت، وقال الأستاذ:

- هيئة المحكمة أدرى بشعاب القضية، ولا يوجد أحد أكثر عدلًا منها ليتلوا قائمة الاتهامات. سأتلوها بالتفصيل على مسامعكم كي تكونوا شاهدين وعادلين في الإنصات. الاتهام الأول: نشرَ المتَّهَمُ بحثًا عن الرقابة في مجلة في أوكرانيا. الاتهام الثاني: المساس بهيبة المحكمة لأنه لم ينهض من على الكرسي عندما رأى نورَها. الاتهام الثالث: الإساءة إلى المرأة المصرية لأنه خاطب رجلا عفيفا شريفا بالسيدة. الاتهام الرابع: الفهم الحرفي للأسئلة والإجابة عليها إجابات مباشرة لا تستوعب روح المسرح، كما رأيتم جميعا عندما سأله المحقق أول سؤال أمامكم. الاتهام الخامس: الجمود والتزمت وعدم التجاوب مع المحقق عندما طلب منه تغيير اسمه. الاتهام السادس: ينظر إلى اسمه على أنه اسم منزَّه ولا يمكن المساس به، وفي هذا انتحال سلطات ليستْ له. الاتهام السابع: ازدواجية الاسم، فيقول إن اسمه رائد وأمه تناديه بشريف، مما يناقض قواعد البحث العلمي، إذ لا يوجد دليل علمي على وجود علاقة وطيدة بين الريادة والشرف. الاتهام الثامن: هذا الصلف وهذا التزمت وهذا الانتهاك لقواعد البحث العلمي، وكلها لا تؤهله لأن يكون باحثًا عن الحقيقة في دراسته

للدكتوراه. الاتهام التاسع: المساس بهيبة المحكمة وهيبة الأساتذة. الاتهام العاشر...

قاطعتُه قائلًا:

- هل هذه اتهامات؟ وهل هي اتهامات تخصني؟

أكمل كلامه، دون أن يلتفت إليّ:

- الاتهام العاشر: إنكار الاتهامات الثابتة بالضرورة. الاتهام الحادي عشر: الجمع بين سؤالين متناقضين، ففي السؤال الأول ينكر أن الاتهامات اتهامات، وفي السؤال الثاني يثبت أنها اتهامات ويدعي أنها لا تخصه، وهو الأمر الذي يبرهن على وجود خلل في التفكير يستدعي إبعاده عن البحث العلمي بكل أشكاله، لأن شخصًا مختلَّ التفكير هكذا لا يمكن ائتمانه على البحث العلمي في هذا العصر الجديد.

ونظر يمينًا ويسارًا، قائلا:

- ما رأيكما يا قاضيات؟

هزت طالبة الليسانس رأسها بالموافقة، في حين أن الحيرة بدتْ على طالبة الدكتوراه، فنظر إليها نظرةً غاضبةً، قائلًا:

- ما رأيك يا قاضية؟ ألن تنزلي عليه معنا بالضربة القاضية؟

وانفجر في الضحك، وأخذ يصفق لنفسه، ثم أشار بعصاته إلى الجمهور،

قائلا:

- أين المؤازرة الطلابية؟ هل سأُصَفِّقُ بمفردي؟

وحرك عصاته حركة رأيتُ فيها حركةَ تهديدٍ، فصفَّقَ بعضُ الطلاب، وقال الأستاذ لطالبة الدكتوراه:

- لا يوجد مجال للاختلاف في هذا الموقف الحاسم في تاريخ الجامعة. لا بد أن تسترد الجامعة هيبتها أولا، ثم نتحاور في الاختلافات فيما بيننا لاحقًا، قلتُ لكِ من قبل: الضربة آتية آتية، قاضية قاضية.

فقدتْ طالبة الدكتوراه الوعي وسقطتْ على الأرض، فانتفض الطالب الذي يحمل الأستاذ وألقى به على أرضية خشبة المسرح، وحمل طالبة الدكتوراه مسرعًا وقائلًا:

- إسعاف يا جماعة، إسعاف.

صفّق الضابط بعدة حركات بطيئة بأحد كفّيه على الكفّ الآخر، وقال:

- أحسنتم جميعا، أحسنتم. لو كنتُ قد وضعتُ أفضل سيناريو، ما كان سيخرج بهذا الشكل.

نظر الطلاب والطالبات إليه نظرات متباينة، لكنها تجمع في الغالب بين الاستنكار والاستغراب والحيرة. فبدأ الضابط يعيد كلامه:

- أحسنتم جميعا، أحسنتم.

لكن جميع الطلاب بمن فيهم أنا انصرفوا عنه عندما سمعوا هتافات طالبات ينادين بشرف الطالبات في الجامعة ويهتفن ضد بعض الأساتذة، فتنحَّى الضابطُ جانبًا، وأفسح الطريق أمام الطلاب، قائلا:

- اهتفوا يا أحبائي كما يحلو لكم، لكن إياكم والخروج من داخل أسوار الجامعة. هذا عصر الفصل بين السلطات.

توجهتُ لباب الجامعة للخروج بعد أن سرتُ لدقائق في مظاهرة الطالبات، ولكن ضابط الأمن منعني من الخروج، قائلا:

- لا يمكنك أن تخرج من هذه البوابة.

قلتُ له:

- ولكنني أسكن في ميدان الجيزة، وهذه أقرب بوابة لطريق سكني.

قال لي بحزم:

- هذه أوامر يا أستاذ. لا يمكن أن تخرج من هذه البوابة، لأنك ستنضم بعد أن تخرج للحشود المُتَرَبِّصَةِ خارج البوابة.

قلتُ له:

- والله العظيم لن أنضم لأحدٍ. سأذهب إلى سكني.

قال لي:

- هو مجرد كلام. وبمجرد أن يخرج الطالب من هنا تجده ينضم إلى الحشود.

قلتُ له:

- أنا طالب دكتوراه ولا يمكنني أن أسلّم عقلي لكل من يهتف بأي شعار.

قال لي:

- هذه مشكلة أكبر.

سألتُه:

- كيف؟

لم يرد عليّ، وأخذ يلتفتُ يمينًا ويسارًا ويتفحّصُ ساحاتِ الجامعة أمامه. رجوتُه قائلا:

- أريد أن أخرج. وإن كنتَ لا تصدقني، أخْرِجْ معي أحدَ العساكر ليصحبني إلى سكني.

قال لي:

- لا يمكن أن أفتح البوابة. كل ما يمكنني أن أقوله لك إن بوابة الجامعة التي عند محطة المترو مفتوحة، فلا يوجد أمامها إلا خط المترو وبعده عمارات سكنية، ومن هناك تأخذ المترو إلى أي مكان يُبعدك عن هنا.

شكرتُه وتوجهت إلى البوابة الأخرى على الجانب الآخر، وأنا أردد اسمي كي لا أنساه، دون أن أستطيع أن أبصر الحلقةَ المفقودة بين هروبي من الأستاذ والمحاكمة التي أقيمتْ لي.

الفصل الثالث

ها هو نفس السور، ببواباته الكثيرة، ولكن كل بوابة لا تنفتح مباشرة نحو الداخل، وإنما تنفتح بزاوية، وكأن السور ليس بامتداد بعضه البعض، فالجزء من السور الذي على يميني الآن قبل البوابة يميل نحو الداخل قليلا، وبعد البوابة يميل نحو الخارج، والبوابة تنفتح على ما يشبه طريق الخدمات، بحيث يمتد نحو الأمام مع الطريق الرئيسي بالخارج، ولكن بزاوية حادة، في طريق تحيط به بعض أشجار الحديقة.

أشتاق إلى جامعة القاهرة بكل ذكرياتي القديمة فيها، سأدخل من هذه البوابة وأقطف لي بعض الثمار، ولا يهم الآن إن كانت ثمارَ علمٍ أم ثمارَ فاكهةٍ، فكُلُّه عطاء في النهاية، وكُلُّه نعمةٌ من الله سبحانه وتعالى.

*****

لذيذة هذه الفاكهة البلدية، الفاكهة الأصلية التي تجعلك تحس بأنك تجلس على حوض منبع الفواكه كلها، منبع الفاكهة بألف ولام التعريف بكل ما فيها ولها، بأنك في حديقة الجاذبية ذاتها وتنهل من اللغة الجاذبية بانتشاء وأنتَ تهرول بين مباني الجامعة اصطيادًا للمعرفة والحقيقة.

أحسُّ بأنني في بداية شيءٍ ما أو حدثٍ ما، وأنني على وشك أن أكتمل، وأظنُّ أنني أتذكَّرُ ذكرياتي وأنا جنين في بطن أمّي، وأحسُّ بأن هذه الفاكهة تصلُني عصارتُها من حبل سُرِّيٍّ لا أراه، لكنَّ حضورَه طاغٍ وكأنه يتصل بي مباشرة أمام عينيّ. أحمدُ الله على هذا الإحساس الفريد الذي يعاودني من منطقة الغموض والألغاز والنسيان إلى منطقة الحضور والوضوح والتذكُّر. وفي الوقت ذاته أحسُّ بأن لحظة حديقة الجاذبية تعاودني من جديد، ولا أعرف كيف أشكر شعراء المدرسة الرومانسية الذين تناولوا مثل هذه اللحظات المستعادة عن طريق الخيال وكيف أنها ثروة هائلة لا تُقَدَّر بثمنٍ ولا يدرك المرءُ قيمتَها إلا عندما تعاوده فجأةً أو إرادةً، فتمزج ما بين الحالات والأزمنة وتجعل الشخص يحس بأنه كان هناك، وأنه يستطيع أن يعيش اللحظة أكثر من مرة...

أسمعُ صوتًا يقول:

- قفْ عندك.

رجلان يرتديان الملابس التقليدية التي يرتديها أهل جمهورية شرقطون التي أعمل بها. يقول أحدهما:

- هذا آخر ما كنّا نتوقعه منك يا دكتور!!

أنظر إلى المتكلم وأقول له:

- هذا الأسلوب أسلوب مصري في الكلام، لماذا لا تستخدم لغة بلدك؟

يقول لي مستغربًا:

- أنا أستخدم لغة بلدي، أنعم الله عليها بالأمن والأمان.

أقول له:

- اللهم آمين. أنعم الله على كل بلادنا بالأمن والأمان، ولكن لغتك مصرية خالصة.

يضحك طويلا، ويقول:

- أدام الله عليك حس الفكاهة والمجاملة يا دكتور، لكن لغتي شرقطونية خالصة.

أقول له:

- يا شيخ، رحم الله والديك، مررتُ بأشياء غريبة؛ ولا يوجد لديّ الآن متّسع للغرابة. أنا أسمع لغتك مصرية خالصة، فلا تجعل الأمور تختلط عليّ.

يقول لي وقد بدا عليه الضيق:

- يا دكتور، من الذي يتكلم بغرابة الآن؟ أعرف أنك لا تتكلم لغة بلادنا مع أنك تفهمها جيدًا، فأهل صعيد مصر أقرباء لنا. ولكنَّك قمتَ بترجمة كلامي وسمعتَه في رأسك بلغة مصرية خالصة، هذا كل ما في الأمر. فلنعد إلى موضوعنا، أم أن كل كلامك هذا تهرُّبٌ من الموضوع؟

أقول له بهدوء كي لا يطول الموضوع لأكثر من ذلك:

- نعم، نعود إلى موضوعنا، لكن ما الموضوع بالضبط؟

يضحك هو والرجل الذي معه، ويقولان في نَفَسٍ واحد:

- هذا آخر ما كنّا نتوقعه منك يا دكتور!!

ويواصلان الضحك. ما أعرفه عن أهل شرقطون أنهم ليسوا أهل فكاهة، فالكثير من المُزَحِ والنكات المصرية لا يستوعبونها، ولا أعرف إن كان فهمُ المزاحِ يحتاج إلى تجذُّرٍ في الثقافة والتاريخ والفن واللغة، أم أن ثقافتهم ثقافة حرفية تتعامل مع الكلام على ظاهره!! كما أنني لا أستطيع الضحك للكثير من النكات التي أسمعها منهم أو للكاريكاتير الذي أقرأه في صحفهم. أقول لهما وقد نفد صبري:

- ما الذي كنتما [وأؤكد في كلامي على ضمير المثنى] تتوقّعانه منّي وأنا الذي جئتُ لأنهل من ثمار جامعة القاهرة؟ هل كنتما تتوقعان أن ألبس عباءتكما وأعود إلى ذلك الظلام؟

أشير بيدي إلى اتجاه غير محدد، بحيث أدور بها في جميع الاتجاهات تقريبا، وأضحك ضحكة طويلة تجعلهما يبهتان أمامي ولا يستطيعان أن يقولا شيئا. يصمتان لدقائق وتظل نظراتنا مثبَّتةً على بعضها البعض كأننا في شريط سينمائي وارتأى المُخْرِجُ أن يثبِّتَ اللقطةَ على الشاشة لبعض الوقت أو يُحَرِّكَها حركةً بطيئةً كي يُبرزَ الانفعالَ على الوجوه في الغالب أو لأي سبب آخر يراه. ثم يقولان سويًّا:

- جئتَ لتسرقنا يا دكتور.

أقول لهما بانفعال:

- هذه جامعة القاهرة، وتفتح أبوابها لطلبة العلم من كل مكان، ولن أقول إنكما جئتما لتسرقا الجامعة.

يقولان:

- سبق السيف العزل. سنستدعي الشرطة.

يطلبان منّي بطاقة إقامتي. أنظر إليهما طويلا مبتسمًا، فأي بطاقة إقامة يطلبانها منّي هنا في بلدي؟!! ومع ذلك، أخرج لهما بطاقتي الشخصية لكي أغيظهما وأثبت لهما أنهما يتكلمان جنونا عندما يطلبان مني بطاقة إقامتي وأنا موجود في بلدي. ينظران إلى بطاقتي الشخصية باستغراب، ثم يقول أحدهما:

- هذا معناه أن إقامتك منتهية هنا وأنك تقيم إقامة غير نظاميَّة. ونحن سنبلّغ عنك الشرطة في هذا أيضا.

أقول له بتحدٍّ:

- وأنا سأتهمكما بأنكما تنتحلان شخصية ضابط شرطة.

يحك رأسه بأظافره وينظر إلى صديقه أو زميله ويسأله:

- هل تعرف معنى كلمة انتحال؟ وهل توجد جريمة عندنا اسمها انتحال؟

يقول له:

- دعك منه. يبدو أنه مجنون. ما علاقتنا نحن بالنحل؟!! ولكن احتياطيًّا، علينا أن نحذف رقم النحّال الذي نشتري منه العسل الجبلي من على جوّالاتنا حتى لا يجد الضابط أي دليل علينا إذا قام بتفتيش جوّالاتنا.

يقول له زميله باستغراب:

- ولكننا استدعينا الشرطة ولم نستدعِ الهيئة.

يرد عليه:

- يبدو أن هذا المصري يحتال علينا ويريد أن يصيبنا بالجنون. لا تلتفت لكلامه. ليس من المعقول أن تصدِّقَه الشرطة وتكذّبَنا.

يتركانني وينهمكان في شرب القهوة تحت إحدى الأشجار. ولكن أحدهما يقول:

- لا تذهب بعيدًا يا دكتور. ستأتي الشرطة سريعًا.

أنظر إليهما بلا مبالاة وأنتظر معهما تلك الشرطة التي ستأتي إليّ في بلدي وتحاسبني على أنني مقيم في دولة أخرى!

*****

يسلِّم علينا بحرارةٍ رجلُ الشرطة الذي كنتُ أعرفه جيِّدًا ولكنني لا أذكر اسمَه الآن، مع أنني أعرف أن رجال الشرطة هنا لا يُظهرون مشاعرهم في تصرفاتهم، وكأنهم يتعاملون بحياد. كما أنهم محترمون ولا يعتدون على أحد إلا إذا كان في سلوكه ما يقول بأنه مخالف. يتوجه إلى الرجلين، وكأنه يخاطب أحدهما، ويسأل:

- ما الذي حدث يا شيخ؟

يقول أحدهما:

- هذا الدكتور المحترم أوقفَ سيارتَه على أشجارنا وأخذ يملأها ببنزين ثمارها، دون أن يطلب الإذن أو يدفع ثمن الوقود. كما أنه....

أقاطعه قائلا:

- أين سيارتي يا شيخ؟ أبحث عنها منذ ساعات ولا أجدها.

وألتفتُ إلى الشرطي وأقول له بجدية تامة:

- أريد سيارتي يا معالي الضابط.

يضع الضابطُ يدَه على فمي ويقول:

- لولا جهلك بنظام شرقطون، لكان كلامك جريمة كبرى.

أقول له بلغة شرقطون التي أعرفها جيدا:

- ما المخالفة للأنظمة في كلامي يا معالي الضابط؟

يذهب لسيارته مسرعًا ويُحضر شريطًا لاصقا ويسد فمي بجزء منه. ويقول بارتياح:

- هذا أحسنُ لي ولك.

عندما يرى الضابط نظرة جانبية ولامعة في أعينهما، يرتبك قليلا، ولكنه سرعان ما يستعيد توازنه ويسألهما:

- من أي إقليم أنتما يا شيوخ؟

يقول أحدهما بفخر:

- أنا من إقليم العالي.

ينظر إليه الرجل الآخر بنوع من الغيظ ولا يتكلم. يستبشر الضابط ويسلّم على الذي قال إنه من إقليم العالي بحرارة ويقول:

- أنا حسن العالي. أوحشني الإقليم. لم أذهب إليه منذ إجازة عيد الفطر الماضي.

يرد عليه الرجلُ بنبرة العارف المتوجّع والمُشْفِق في الوقت ذاته:

- الإقليم لا يهون إلا على أهالي الأقاليم الأخرى. لولا أنك من إقليم العالي، لكنتُ شكوتُكَ إلى صاحب المعالي وقلتُ إنك قَبِلْتَ بأن يناديك الناس بصاحب المعالي.

يقول له بنبرة المتودِّدِ:

- الله عفوٌّ كريمٌ يا شيخ. وأنت رأيتَ بعينيك كيف أنني سددتُ فمه بالشريط كي لا يورِّطنا أكثر من ذلك.

يقول له الشيخ مستهجنًا:

- يورّطنا؟!! يورّطك أنت يا ضابط. عندما يصل الأمر إلى قطع الرقبة، فلا مزاح ولا إقليم العالي.

يخرج الشيخ الآخر عن صمته ويقول:

- إذا لم يدفع هذا المصري ثمن فاكهة البنزين، سأورِّطُكما أنا وأبلّغ عنكما بأنكما سمحتما للناس أن تنادي أهل إقليم العالي بصاحب المعالي.

يقول الضابط بجدية تامة:

- ما دام الأمر وصل إلى هذا الحد، أين وثيقة الأرض التي عليها هذه الحديقة؟

يتلعثمان، وينقلب وجهاهما إلى البشاشة، ويقطفان ثمرتين من الأشجار ويقدمانهما للضابط، ويقول الذي ليس من إقليم العالي:

- بالهناء والشفاء يا ضابط، كنا نمزح معكما.

يسأله الضابط بجدية:

- من الذي معي؟

يرد عليه الرجل:

- ذلك المصري

يقول له الضابط بحدة:

- لا تقل عليه المصري. إنه الدكتور.

يقول الرجل متمسكنًا:

- الذي لا يعرفك يجهلك، كما يقول إخواننا المصريون.

يقول الضابط ضاحكًا:

- حصل خير، كما يقول إخواننا وأخوالنا المصريون أيضا. لكن النظام نظام.

هذه قضية رشوة: ثمرتان ناضجتان من ثمار البنزين يقدَّمان لضابط شرطة نظير تغاضيه عن تزوير وثيقة أرض حديقة ثمار بنزين.

يصابان بالفزع، ولكن الضابط يتجاهلهما تمامًا وينظر نحوي ويسألني:

- ما رأيك في هذه الصياغة القانونية يا دكتور؟

أهز له رأسي، ولا أعرف إن كانت هذه الصياغة قانونية أم صحفية. يربّت على كتفي. وينظر نحوهما نظرة طويلة كأنه يريد أن يحوّلهما لمحاكمة عاجلة، ثم يقول:

- العدل يقتضي أن تعطياه ثمرتين ليأكلهما.....

وينظر نحوي قليلا، ثم يضحك ويكمل كلامه:

- ليأكلهما ذلك المصري.

ويكمل ضحكته. أتذكر بعض المشاهد من المسلسلات والأفلام الكوميدية المصرية وأجد تشابها بينها وبين كلامه؛ فأهمُّ أن أضحك، ولكن الشريط اللاصق يمنعني، فأشير إليه بأن يزيل الشريط من على فمي، فيأتي نحوي وبيده الثمرتان ويقدمهما لي وهو يزيل الشريط، قائلا:

- مع أن ثمار البنزين زُرِعَتْ للسيارات، فهي مقوّية جدًا للإنسان، وأفضل من العسل الجبلي وحليب الإبل.

لذيذة جدًّا. أحسُّ بطاقة جديدة تسري في جسمي. أنظر إلى الضابط الذي يضع يده على كتفي ويسير بي كما لو كنا صديقين نحو الطريق الرئيسي، وأتذكر السيارة، فأسأله:

- أين سيارتي؟

يقول لي بنبرة مزاح:

- وما الفرق بين سيارتي وسيارتك يا دكتور؟ هيا اركبْ معي، وفي الطريق نتكلم في موضوع سيارتك. لا أعرف ما الذي حدث هنا؛ لم يكن أحد من قبل يبلّغ عن سرقة سيارة. ولولا أنني أثق فيك، لقلتُ إنه بلاغ كيدي. على العموم، حصل خير. وإن لم نجدها، فالسيارات انخفض ثمنها هناك بعد أن حلت بنا تلك المصيبة.

لا أعرف ما الذي تشير إليه كلمة "هناك" وكلمة "تلك"، فأسأله:

- أية مصيبة؟

يتلعثم وينظر لي باستغراب، قائلا:

- هل أنا ذكرتُ أية مصائب؟ استبشر خيرًا يا دكتور. ربنا يبعد عنا المصائب ويديم علينا الأمن والأمان.

*****

أسأل الضباط حسن:

- هل عثرتم على سيارتي؟

يتوقف وينزل يده من على كتفي، ويتحرك قليلا ليصير في مواجهتي بالضبط، ويقول لي:

- أي سيارة يا دكتور؟ أحبُّ أن أنزل مصر في الإجازات. ومع أنني لم أدرس في جامعة القاهرة، أبي درس فيها وحبّبنا في مصر وناس مصر.

أقول له جادًّا:

- أين نحن الآن؟ هل في مصر أم في شرقطون؟

يقول لي جادًّا أيضا:

- كلها بلاد الله يا دكتور، وكما تقولون هنا في مصر: ما مصر وشرقطون إلا بلدًا واحدًا؟

أبتسمُ ابتسامة واسعة وصافية، وأقول له:

- هل نقول في مصر ذلك؟

يقول لي ضاحكًا:

- لا تدقّ، يا دكتور، حتى مطرح ما ترسي.

أنظر إليه قليلا، وأقول مستغربًا ومحتاطًا في نفس الوقت كي لا يضع الشريط اللاصق على فمي:

- ما هذه الثورية يا أستاذ ضابط؟

يبتسم، وفي الوقت ذاته يضع يده على فمي ويبحث في جيوبه عن الشريط اللاصق. أقول له:

- الشريط اللاصق في السيارة.

يبدو أن كلامي وصله بوضوح، فتبحث عيناه عن السيارة، ولكنه يعود ويرفع يده من على فمي ويبحث بكلتا يديه في جيوبه، ثم يبتسم ويقول له بنبرة المكتشف:

- وجدتُه، وجدتُه.

ولا أعرف إن كانت نبرة المكتشف تتطلب أن يقول: "وجدتها"؟ أم أن كلمة "وجدتُه" تكفي.

يقول:

- أين ستذهب بعيدًا عني يا دكتور؟

ويضحك ضحكة عالية ويقول:

- هذه ترجمة "هتروح منّي فين يا دكتور؟"

أضحك لهذا الجو اللطيف وأقول له:

- لكن ترجمتك ترجمة لعبارة مثل: "هجّ يا غالي إلى أي مكان، هتلف تلف ومسيرك هترجعلي". فليس فيها نبرة التهديد التي في "هتروح مني فين يا دكتور؟"

يسلّم عليّ بحرارة ويقول:

- أي تهديد يا دكتور؟ ليس بيننا إلا كل خير.

أربّت بيدي الأخرى على يده التي تسلّم عليّ وأقول:

- أرى فيك إنسانا ناضجًا.

يقول بجدية تامة:

- وأنا أرى فيك بنزينًا ناضجًا.

وينفجر في الضحك. لا أستوعب كلامه في البداية، لكنني عندما أتذكر ثمرة البنزين، أبتعد عنه بضع خطوات وأقول له:

- دمك خفيف يا ضابط حسن.

يقول ضاحكًا:

- الضابط حسن على وزن الشاطر حسن.

أقول له:

- بجد، تفاجأتُ بخفة دمك يا ضابط حسن.

يقول لي غاضبًا:

- مَن حسن هذا يا دكتور؟ أنت الذي اسمك حسن؟

أقول له بجدية ونفاد صبر:

- ألم تقل للشيخين إنك حسن العالي؟

يقول لي بجدية أيضا:

- نعم قلت ذلك وأنا في كامل قواي العقلية، كما تقولون هنا في مصر.

أقول له:

- ولماذا تنكر اسمك الآن إذن؟

يقول لي بنبرة عتاب:

- أين نباهتك يا دكتور؟ هل كل من يقول إن اسمه كذا يكون اسمه كذا؟

أقلد نبرته في العتاب وأسأله:

- لماذا قلتَ إذن إن اسمك حسن العالي؟

يقول لي بنبرة ودودة:

- يا دكتور، أنت تعيش في شرقطون منذ ثلاثة عشر سنة، ولا تقل لي إن نطق العدد خطأ، فدائما أخطأ في نطق الأعداد.

ويضحك، فأضحك وأقول على الفور:

- وأنا أيضا، عندما أريد أن أكتب عددًا مثل هذا أرجع لكتب النحو.

ونكمل ضحكنا.

ثم أقول له:

- كلامًا بكلام، هل كل من يقول لي إن اسمي حسن أصدقه. أظن أنني أعرف اسمي جيدا، حتى لو كنا الآن في حلم ويحاول الحلم أو تحاول أنت فيه أن تقنعني بأن اسمي حسن.

ينظر لي بمزاح ويقول:

- ما هذا الكلام الكبير؟!! يا رجل، لا تعطِ الموضوع أكبر من حجمه. كما أن اسم حسن ليس من عندي، ألم تكتب على صفحتك على الفيسبوك ذات يوم إنك لم ترَ ذلك حسنًا؟ هل تستطيع أن تنكر ذلك؟

أقول له وأنا أنظر في عينيه مباشرة:

- وما علاقة ذلك باسمي؟

يقول لي:

- ألا تقولون في مصر إن الجوعان يحلم برغيف العيش؟

أقول له:

- وما علاقة ذلك باسمي؟

يقول لي:

- أنت كنت تريد أن ترى ذلك حسنًا، وعندما لم ترَه كذلك، عبرتَ عن استيائك.

أقول له:

- العلاقة بين تفسيرك وكلامي بعيدة جدا، فأنا نظرتُ ولم أرَ حُسْنًا.

يقول لي:

- هل قلتُ لك إنني كنتُ أظنُّكَ خبيثًا عندما كنت تدرّس لي في بكالوريوس اللغة الإنجليزية، فلقد كان كلامك دائما يحتمل أكثر من معنى؟

أقول له:

- هل قلتَ لي ذلك؟

يقول:

- لا أعرف، ولكنني صريح معك الآن، وربما قلتُ لك هذا الكلام من قبل.

أسأله من جديد:

- لم أفهم حتى الآن، ما علاقة ذلك باسمي؟

يقول لي:

- يمكنك أن تفهم الموضوع كالتالي: أنتَ كنت تشتاق إلى الحسن الغائب، فاتخذتَ لنفسك اسم حسن.

أقول له بشرود:

- ولكنه اسمٌ مثاليٌّ من حديقة الجاذبية واللغة الجاذبية، وأنا أدرك الآن وأنا في ناقص قواي العقلية أنها لحظة هروب من المرارة والعبث.

يسألني بتجهُّم:

- كيف تريدني أن أثق بك؟

أسأله باستنكار:

- وما الذي جاء بموضوع الثقة هنا الآن؟

ينظر لي نظرة جانبية ويقول:

- ها أنت تتخابث من جديد. كيف تريدني أن أثق فيك وكلامك الذي قلتَه منذ قليل يحمل معاني كثيرة لا أستطيع أن أصل إليها؟

أقول له ضاحكا:

- اعتبرها جريمة تحتاج إلى حل لغزها يا ضابط حسن.

يقول لي غاضبًا:

- ها أنت تتكلم بالألغاز من جديد. وقلت لك إنني لستُ حسنًا. كما أنني في إجازة الآن من العمل، ولن أضيّع إجازتي في التحقيق في جرائم عويصة هكذا.

ويضحك ضحكةً طويلةً، فأستغلُّ ضحكتَه وأسألُه:

- ألم تقل إن اسمك حسن العالي؟

يرسم ملامح جادة على وجهه ويقول:

- كيف تعيش لمدة ثلاث عشرة سنة في شرقطون حتى الآن ولا تعرف أن الألقاب هنا تُقال بحساب شديد وعسير، فالألقاب محفوظة كما تقولون في

مصر، ولكنها محفوظة بالمعنى الحرفي للكلمة، فلا يمكنك أن تنادي أحدًا بلقب سلطة أخرى، وإلا ستذهب وراء الشمس كما تقولون عندكم في مصر.

أقاطعه قائلا:

- وما علاقة ذلك بإنكارك لاسمك حسن؟

يقول لي بنبرة اعتذار:

- سامحني يا دكتور؛ عندما كنتَ تدرِّسْ لي في بكالوريوس اللغة الإنجليزية قبل أن أصير ضابط شرطة كنتُ أظن أنك خبيث وماكر، فكلامك كانت فيه معاني كثيرة، وكنتُ أقول إن الذي يتكلم كلاما له أكثر من معنى إنسان ماكر وخبيث ولئيم. كما أن تربيتنا في شرقطون علَّمَتْنا أنَّكم ماكرون ولا يأمن لكم أحدٌ من أهل شرقطون.

ويضحك وهو يُرَبِّتُ على كتفي. ولا أعرف على أي جزء من كلامه بالضبط أَرُدُّ، ولكنني أبدأ بضمير الجمع الذي يستخدمه وهو يكلمني أنا فقط:

- من أنتم الذين تجمعني بهم هؤلاء؟

يقول لي مستغربًا:

- ما الذي جرى يا دكتور؟ ترجمة "جرى ايه يا دكتور؟"

ويضحك. أحسُّ بأنني دخلتُ في فيلم كُلُّهُ قَلْشٌ أو حتى أَلْش، فأنظر إليه طويلا كي أتبين ما يقصده بالضبط وكأنني أتعرَّف عليه لأول مرة. يقول لي:

- نظرتك هذه تخيفني يا دكتور، ولولا أنني أحبك لكنتُ لفّقتُ لك قضية اعتداء على رجل أمن، وهذه قضية عقوبتها السجن والغرامة معا يا دكتور، وأنا أعرف أنك ليس في جيبك الآن حتى خمسون جنيها شرقطونيًّا ولا تستطيع حتى أن تسدد ديونك في مصر، أترى كيف أنا صريح معك؟ أستخدم كلمة "لفّقتُ" عليك هكذا؟

أقول له مكايدًا:

- اسمها "على الملأ" وليست "عليك".

يقول لي معاتبًا ومكايدًا في الوقت ذاته:

- أين نباهتك يا دكتور؟ هل يوجد أحد غيري وغيرك على هذا المقهى الشعبي؟ أحببتُ مصر ومقاهي مصر من الأفلام المصرية. اشربْ قهوتك وشيشتك يا دكتور، اشربْ، اشربْ، لا أحد يأخذ منها شيئًا. أين زبائن المقهى؟

الفصل الرابع

أنظر حولي وأجدني جالسًا مع الضابط حسن العالي على مقهى في شارع فيصل بالجيزة في الغالب، ولا أجد أي زبون آخر على المقهى غيرنا. يضع يده على بطنه ويقول:

- ألم تجعْ يا دكتور؟ الشيشة أجاعتْني. لماذا أنت بخيل هكذا؟ ألم ترسل لك أمُّكَ بالأمس أكلًا من الصعيد؟

أنظر إليه باستغراب، كما أنظر أحيانًا لأحد أصدقائي عندما أريد أن أوصل له رسالة لا يستطيع أن يفهمَها أحدٌ ممن يجلسون حولنا، مع أن أمي لم ترسل لي شيئًا، وأسأله:

- ألم نكن سويًّا منذ دقائق في شرقطون؟!

ينهض من على كرسيَّه ويقول:

- أحسُّ بأنني أصبحت مصريًّا فعلًا.

ويتحرك نحوي وهو يضع يده على جبهتي ليتحسَّس حرارة جسمي في الغالب، ثم يضحك بصوت مرتفع، ويقول:

- لا تخفْ. نحن لوحدنا على المقهى. أنت ابن نكتة يا دكتور. أي دقائق وكان ذلك قبل رمضان؛ ألم نأكل ثمار البنزين في وضح النهار؟

أقول له مبتسمًا:

- حلوة "وضح" هذه. هو زمن واحد، ولا أعرف كيف سافرنا إلى الجيزة هكذا!! كما أنني لم أنزل من شرقطون في إجازة هذا الصيف!

يقول لي بنبرة مكايدة:

- يبدو أنك تتهرّب من أن تُذِيقَنِي من أكلِ أمِّكَ يا دكتور.

أقول له بنفاد صبر:

- يا ضابط حسن، لم ترسل لي أمي شيئا؟

أقولها وأحسُّ في نبرة كلامي لهجة من يريد أن يتنصّل من جريمة ما. ولكنه يقول لي:

- أشمُّ رائحة الأكل من هنا.

وينظر إلى الجهة الأخرى من الشارع. فأقول له:

- خَلِّكَ معي. ما الذي تنظر إليه هكذا؟

يقول لي:

- أنا آسف؛ يبدو أن نظرتي التي غيّرتُها عنك كانت خاطئة، فها أنت لئيم أمامي.

أقول له:

- يا ضابط حسن، حرارة أغسطس لا تسمح لي بهذا المزاح.

يقول لي معاتبًا:

- يا دكتور، لا أنا اسمي حسن ولا نحن في أغسطس، وها هو بيتكم أمامي.

أقول له مستغربًا ومُنْكِرًا في الوقت ذاته:

- أمامك؟!! ها هي المياه وها هو الغطّاس، وأنا معك إلى حدِّ الباب، والمياه تكذِّبُ الغطَّاسَ.

يمسك بيدي وهو يترك الحساب لعامل المقهى ويعبر بي الشارع كما لو كنا وحدنا نمر في الشارع، مع أنني أعرف أن شارع فيصل بالجيزة مزدحم طوال الوقت، ومع أنني لم أعد أسكن في شارع فيصل، ومع أنني أظن أنني ما زلتُ في شرقطون، ومع أن أمي مريضة ولم تعد تستطيع الوقوف لتجهيز الأكل.

يقول لي:

- افتح عينيك يا دكتور.

أقول له:

- لم أغمضْ عينيّ.

يقول لي:

- لا تُفسدْ عليك المفاجأة.

أقول له مستغربًا:

- أية مفاجأة؟

*****

يمد يديه نحو اليمين واليسار وينحني لأسفل قليلا وهو يقول:

- ترا را را را. ها هو بيتك وبيت أمِّك. قلتُ نجيء ونساعدها في تجهيز الأكل. كما تعرف، الأكل الطازج أفضل من الأكل البائت. وذلك الأكل البائت ما زال في الثلاجة، ويمكننا أن نأكله عندما نعود إلى الجيزة بإذن الله.

أقول له باندفاع:

- ألسنا في الجيزة الآن يا معالي الضابط؟

وأبتسم. يبتسم نصف ابتسامة وهو يقول:

- الشريط اللاصق تركتُه هناك في شرقطون، كما أنك هنا في بلدك، لماذا لا تقول لي: "يا باشا"؟ أم أنك بخيل أيضا في هذا؟

وكأنه لم يسأل شيئًا، يسير بي في طريق حوله نباتات ريفية وهو يتأمل الخضرة على الجانبين، وللغرابة أعرف هذا الطريق جيِّدًا، فهو الطريق الموصل لبيتِنا في الصعيد. أقول له:

- كيف جئنا من الجيزة إلى جهينة في سوهاج في دقائق هكذا؟

يقول لي بنبرة جادة تمامًا:

- احترمِ اللحظةَ يا دكتور. هل تقول "دقائق" مرة أخرى؟ على الطريق فقط قضينا أكثر من ٢٤ ساعة، لم أكن أعرف أن الطرقات مزدحمة جدًّا عندكم في الأعياد هكذا، ولم أكن أعرف أن السائقين عندكم طمّاعون هكذا في المناسبات! مع أن الركّاب لا عدد لهم، تجد السائقين يتشاجرون على الاستحواذ على

الركاب وبأعلى سعر، مع أنهم يرفضون الكثير من الركّاب إلا من يدفع ثلاثة أضعاف الأجرة على الأقل. لو كانوا يعرفون ما بداخلنا لكان أحدهم قد انطلق بنا مباشرةً ولم يأخذ منَّا جنيهَا واحدًا.

أقول له، وأنا أجاريه في الحالة التمثيلية التي من الواضح أنه دخل فيها:

- هل نحن على رأسنا ريشة؟ كما أن الناس ليس لها إلا الظاهر ولا يعرفون ما في داخل الآخرين.

يتوقف على الطريق ويمسك بيدي ويدير وجهي نحوه، ويقول:

- ولكنك لا تعرف ما بداخلك يا دكتور. أستغربُ من أنك تتصرف كما في المعتاد، وكأن لا شيء يثقل على قلبك. لولا الموقف ما كنتُ جئتُ معك. جئتُ إلى مصر فقط لكي أقضي إجازة الحج، ولا أريد أن أضيعها في أحزان. لكن الرجولة مواقف، كما تقولون. أعرف أنك على قد الموقف، وكل شيء بأمر الله.

أهم أن أردَّ عليه، لكنه يضع يده على فمي ويقول:

- لستَ في حاجة للكلام. أنا أفهمك. ومنذ المكالمة التي وصلتْك وأنت لا تتكلم كثيرا. أعرف أن الحزن في القلب، وأشكر لك قوة إيمانك.

ما هذه المسرحية الطويلة؟!! حتى أغرب منام لا يمكن أن يكون هكذا!! لا يمكن لأي شيء أن يقفز من جهة إلى جهة مختلفة عنها تماما هكذا، فهذه القفزات تربك العقل وتجعله لا يستوعب شيئا، لأنه يشعر بأن هناك نصفًا

مجهولًا لكل شيء، ومن دونه لا يمكن أن تتضح صورة أي شيء. أنظر إلى الضابط نظرة تساؤل، فيربت على كتفي. أنفجر فيه:

- لا أطلب منك أن تربت على كتفي. أريد فقط أن أفهم ما يحدث وأفهم تصرفاتك الغريبة وكلامك الأغرب. تتصرف كما لو كنتَ تفهم كل شيء وأنا لا أفهم شيئا!! وتتعامل معي كأنك حكيم وأنا جهول!! قلْ لي كلمة واحدة مفهومة وفي سياقها، بدلا من هذه الألغاز، ففي كلامك عشرات الحلقات المفقودة التي تجعلني لا أفهم شيئا ولا أستطيع أن أربط بين الأشياء.

يقول لي:

- لا تغضب يا دكتور. ظننتُ أنني صرتُ مصريًّا وأستطيع أن أواسيك بطريقة لائقة. ظننتُ أننا أصدقاء ويمكنني أن أتكلم بطريقة كلامك وأواسيك بأسلوبك.

اهدّئ من نبرة صوتي وأقول له:

- نعم، هي مواساة. ولكن ما سببها؟ لا يوجد أي شيء يدعو لكلامك هذا.

يقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. الحزن يفعل أكثر من ذلك يا دكتور. لا يمكننا أن نتأخر لأكثر من ذلك.

تعاودني الحدة وأقول له:

- نتأخر على ماذا؟ أحسُّ بأنني في مسرحية عبثية مقلوبة.

يقول محتدًّا:

- ها أنت تتكلم بالألغاز. ما معنى مسرحية عبثية؟ وما معنى مسرحية مقلوبة؟

أقول له بهدوء:

- بدلا من أن ننتظر اللاشيء، نستعجل اللاشيء.

يقول لي وهي يحاول أن يجعل ضحكته طبيعية:

- نوّرتَ المجلس وأضفت، كما تقولون هنا في مصر.

ينقبض قلبي عندما أبصر النباتات حول الطريق وكأنني أراها لأول مرة. لا توجد أوراق مفرودة أو متفتحة، وإنما أوراق كل النباتات منكمشة على نفسها، وكأنها ميّتَة إكلينيكيًّا أو سريريًّا، كما أن عيدانها أو سيقانها لا تستقيم أو تعتدل، وكأنها تشعر بالذل أو الخزي أو القهر أو حتى الحرمان. خضرة باهتة توحي بالانقباض والبؤس والكآبة. أحسُّ بأن تاريخي كله يموت أمامي، فهذه النباتات لم تكن مجرد نباتات، وإنما كانت هوية وجذورًا وامتدادًا وبراحًا وتواصُلًا، حتى لو لم تكن النباتات هي نفسها النباتات التي كنت أعايشها قديما، كماءِ النهرِ الذي لا يَظَلُّ كما هو وإنما يحلُّ محلَّه ماءٌ آخرُ، ولكنه في كل الأحوال هو النهر المحيط بكل المياه التي تسري فيه. وهكذا الأرض التي تمثّل أساسَ وتربةَ وحضنَ كلِّ النباتات التي تنمو فيها. ما الذي حدث؟

هل هذه حلقة أخرى مفقودة؟ هل أنا ذاتي حلقة مفقودة؟ يُخرجني الضابط حسن من تأملاتي ويسألني:

- كيف حال المجلس يا دكتور؟ وكيف حال نورك فيه؟

أنظر إليه نظرة صامتة أحسُّ بأنها تستطيع أن تنقل له معاني كثيرة، وأقول له:

- لا شيء، لا شيء يا ضابط حسن.

يسألني ضاحكًا:

- هل هو اللاشيء الذي ننتظره أم اللاشيء الذي نستعجله؟

أضحك ضحكةً مُرَّةً وأقول له:

- يبدو أنه لا هذا ولا ذاك. انظرْ حولك. كيف ترى النباتات؟

يقول لي بابتسامة:

- ما شاء الله. هي نباتات خير. ما شاء الله.

أسأله:

- هل ترى موتها؟

يقول لي:

- استبشرْ يا دكتور، استبشرْ. هل يجد أحدًا هذه الخضرة ولا يحمد ربه؟

أقول له:

- الحمد لله على كل شيء، الحمد لله في كل الأوقات. لكن ألا تستغرب هذا الذبول؟

يقول لي:

- غريبٌ أمرُك يا دكتور! ألم ترَ الأشجار عندنا في شرقطون؟ ألم ترَ خضرتها الباهتة التي تُعْتَبَرُ هذه الخضرة جنة بالنسبة لها؟

أقول له:

- الحمد لله في كل الأحوال. لكن مقارنتك هنا غير عادلة، فأنا أقارنها بالخضرة التي كنتُ أعرفها هنا من قبل. هذه الخضرةُ موتٌ بالنسبة لتلك الخضرة القديمة.

يقول لي:

- بصراحة لا أستطيع أن أقول شيئا، فأنا أجيء إلى الريف هنا لأول مرة ولم أرَ خضرته إلا في الأفلام والمسلسلات المصرية، ولا أعرف إن كانت هذه الأفلام والمسلسلات تبالغ أم تصوِّر الحقيقة، كما أنك تعرف أن الألوان تتغير إلى حدٍّ ما عند التقاطها بالكاميرا.

أقول له:

- سأسألك السؤال بطريقة أخرى، كيف ترى الخضرة التي أمامك الآن بالمقارنة بالخضرة التي كنت تراها في الأفلام والمسلسلات؟

يُبعد نظرة عينيه عن نظرة عينيّ، ويصمت قليلا، ثم يقول:

- المهم أن الأفلام والمسلسلات موجودة. والحمد لله على أن اليوتيوب والإنترنت يحفظان كل شيء الآن.

أُهِمُّ أنْ أسألَه سؤالًا آخرَ، لكنه يضع يده على فمي ويقول:

- لقد تأخرنا كثيرا يا دكتور، لقد تأخرنا، فلا تضيّع وقتك في الكلام وهيا نسرع كي لا تندم على شيء في وقت لاحق. واحمدْ ربَّك، فمصيبتك أخفُّ من تلك المصيبة.

أنظر إليه باستغراب وأهمُّ بأن أسأله عن "تلك المصيبة" التي ذكرها من قبل أيضا وراوغني في الإجابة، ولكنني أحسُّ بأننا سنعود إلى الحلقات المفقودة وإلى الدوّامة، فأسرع الخطى بجانبه نحو بيتنا.

الفصل الخامس

يشير الضابط حسن بيده كأنه يستدعي شخصًا ما، فأجدني واقفًا معه أمام باب بيتنا الجديد، أقصد بيتي أنا وإخوتي وأخواتي وأمي، ونحن ندق الباب. تفتح أمي الباب. يتهلل وجهي وأحس بالارتياح وأرتمي في حضنها باكيًا. تُخرجني من صدرها وتضربني بكفّها على وجهي، قائلة:

- ابتعد أيها الغريب. من لا يقرأ الفضائحَ ليس له إلا الضرب بالجِزم.

أهزُّ رأسي، فلا أستطيع أن أستوعب كلام أمي، وأقول لها:

- ماذا بكِ يا أمي؟ ما الذي يحدث؟ هل هكذا تقابل أمٌّ ابنَها الذي عاد من السفر؟

أجدها تتحوّل أمامي وتتكلم بطريقة غريبة عليها:

- أمك؟!! من أمك، يا قليل الأدب، يا نجس؟!! عشنا وشفنا الناس يزوّرون الأمومة!! أمك ماذا، يا روح أمك؟ امشِ يا سي عمر أحسن لك!!

أنظر إلى الضابط حسن، فيرتبك ويقول لأمي:

- ربنا يعطيك الصحة والسماح يا حاجة، قد يكون قد أخطأ، لكن المسامح كريم. سامحي ابنك حسن يا أم حسن.

ينتفض جسم أمي وتقع على الأرض ويبدو أنها فقدت الوعي. أجرى مسرعًا نحو الداخل إلى المكان الذي نخزّن فيه البصل وأجيء ببصلة وأفسّخها

بيدي. تفتح نصفَ عين عندما تشمُّ البصل. وعندما تلتقي نظرتها بنظرتي، تبعد عينها بسرعة كأنها تتحاشى رؤية شيء فظيع ورهيب ومرعِب. وعندما تستقر عينها على الضابط الذي لم أعد أعرف إن كان اسمه حسن أم لا، يتهلل وجهها وتقول:

- لماذا جئت مبكرا يا حسن؟ كنتَ انتظرتَ سنوات أخرى حتى تجيء! أهي عادتك أم ستشتريها؟!!

يرتبكُ الضابطُ الذي أظن أن اسمه حسن ويقول لها ومعظم كلامه حائر في عينيه:

- أنا آسف يا أم حسن، سلامتها أم حسن.

وينفجر في الضحك وهو يقول بنبرة المعتذر:

- سامحني يا دكتور. سامحيني يا أم حسن. القافية حكمتْ. لا يمكنني أن أفوّت هذه الفرصة. قلشة طبيعية، مثل هذا الريف الطبيعي.

أجد أمي تضحك هي الأخرى كما لم أرَها تضحك من قبل، وتقول موجِّهَةً كلامها للضابط:

- حتى في موتك دمك خفيف! "من يوم ما سافر حبيبي".

يكمل الضابط حسن أغنية أم كلثوم التي على لسانها ويقول:

- وها أنا أَفِي بِوِصَالِي يا أم حسن.

ويضحك وهو يكمل كلامه:

- لازم نخرج من جوّ الأغنية الحزين.

تقول له أمي:

- لا يضرُّ يا ولدي. والنَّكَدُ آخرتُه نكدٌ. فرفشْ ولا تكدِّرْ نفسَكَ.

أضع يدي على كتف أمي وقبل أن أتكلم معها، تضرب يدي بيدها وتزيحها وهي تقول:

- قطع يدك.

أقول لها:

- ماذا بك يا أمي؟ هذا صديقي، وليس ابنَكِ.

وأشير إلى الضابط حسن. تقول لي على الفور:

- أمك ماذا، يا روح أمك؟!!

أقول لها معتذرًا ومكايِدًا في الوقت ذاته:

- اعذريني يا أمي، سأعتبر نفسي كيس جوّافة، كما تتعاملين معي.

تبتسم وهي تكلم الضابط، قائلة:

- اغسل لي يا ولد يا حسن جوافتين من هذا الكيس.

وتشير إليّ. يلتفت الضابط يمينًا ويسارًا وهو لا يستطيع أن يخفي ارتباكه، وكأن هذه النكتة لا يوجد شيء في قاموسه الفكاهي يفسّرها أو يضعها في سياقها، فيقول بنبرة مليئة بالحيرة:

- أين حنفية المياه يا أم حسن؟

تقول له باستغراب:

- هل ١٣ سنة موت يا حسن تجعلك تنسى مكان الحنفية هكذا؟ ماذا عما يقولونه عن الموتى بأنهم يتذكرون كل شيء عن الدنيا؟! لماذا تشكّكني في نفسي؟ ها أنا أتذكر كل شيء، والحنفية هناك.

وتشير بيدها نحو ركن البيت على يمينها. تظهر علامات صدمة كبيرة على وجه الضابط. يصمت قليلا كأنه يستحضر شيئا، ثم يبدأ في رسم ملامح تعبيرية على وجهه ويقول:

- اعذريني يا أمي، من الواضح أنني متّ من دون أن أحس.

تقول له:

- فعلا يا ولدي، الغربة تجعل الواحد لا يحس بشيء. لّما متَّ كنتَ هناك في البلاد البعيدة، وبلاد الله ليست مثل بعضها.

يبدو أن الضابط حسن لا يعرف ماذا يقول، فيغمز لي بعينيه كأنه يطلب مني المساعدة، فأقول:

- وبلاد الله يا أمي نجاة أيضا. لولاها لكنتُ متّ أنا أيضا.

تنظر لي بطرف عينها كأنها تتجاهلني تماما، وفي الوقت ذاته تبتسم وتقول لي:

- نجاة الصغيرة أم نجاة الكبيرة؟

وتلتفت إلى الضابط حسن وتسأله:

- لماذا أسموها نجاة الصغيرة يا حسن؟ ومن هي نجاة الكبيرة؟

يرسم الضابط علامات شرود على وجهه كأنه يحاول أن يتذكَّر شيئا ما، ثم يبتسم ويقول:

- نجاة العنتبلي يا أم حسن، هذه كانت ممثلة أيام الحملة الفرنسية على مصر. الله يرحم نجاة العنتبلي وزمن الفن الجميل.

تمد أمي يدها وأجد ثمرة جوّافة تظهر في قبضتها، تقوي قبضتها عليها وهي تنظر نحو الضابط حسن وتقول:

- هل تضحك عليّ يا ولد؟ هل كانت هناك سينما على أيام الحملة الفرنسية؟

يقول لها:

- ولماذا أكذب عليك يا أم حسن؟ صحيح أن عملي في الغيط كان يمنعني من دخول السينما، لكنني شاهدت ثلاثة أفلام بعد احتفالنا بطرد الحملة الفرنسية من جهينة.

تقول له:

- الكذب خيبة يا ولدي. شاركتُ في طردها ولم تكن هناك سينما.

أنفجرُ فيهما قائلا:

- ما الذي جاء بالحملة الفرنسية إلى القرن الحادي والعشرين؟ هل تصرّان على أن تجنّناني؟

تشير أمي بيدها نحوي دون أن تلتفت إليّ وتقول للضابط حسن:

- من هذا يا حسن؟

يتناوب الضابط حسن نظره ما بيني وبينها، ويقول وهو يحاول أن يبدو جادًّا:

- المسامح كريم يا أم حسن. الخطأ ركبَ حسن من أساسه لرأسه، لكن أنتِ أمّه، وإذا لم تسامح الأم ابنها، فمَن يسامحه؟

تقول له، دون أن تلتفتَ إليّ:

- أنا سامحتك يا ولدي منذ موتك. لن أكون أنا والغربة عليك. لكنك لماذا تلف وتدور؟! سألتُك عن هذا.

وتشير بيدها نحوي دون أن تنظر لي. يقول لها الضابط:

- الكذب خيبة يا أم حسن. هذا صديقي حسن.

تقول ضاحكة ببشاشة لأول مرة:

- صدقَ الوزير المؤتمن.

وتقف مرحّبة بي وهي تقول كمن تتقمّص شخصية أم حسن في تكملة افتراضية لقصيدة "صديقي حسن" للشاعر أحمد مطر:

- أخيرًا عدتَ يا حسن. ظل السؤال "وأين صديقي حسن" يطنُّ ويرنُّ في أذني طوال ثلاث عشرة سنة، وها أنت جئتَ. تعال في حضن أرضك يا حسن.

أهمُّ أن أرتمي في حضنها، فتبعدني بيديها وتقول:

- هل صدقتَ يا حسن؟ أنت غريب عليّ، وخلِّ السلامَ بالرِّمش.

وعندما أهمُّ أن أتكلّم، تضع يدها على فمي وتقول لي:

- الأصول أصول يا حسن، والأصول تقول: "سلِّم ما تتكلمش، خلّي السلام بالرمش". ها أنا أهزُّ رمشي، فهزّ رمشَكَ فقط، وبعدها نتصرف.

أهزُّ رمشي، فتبتسم وتسلّم عليّ بحرارة. لا أظن أن أمّي تستمع إلى أغاني إيهاب توفيق التي تذكر واحدة منها في كلامها عن الأصول هذه، ولكنها أمي، فأقول لها على لسان إيهاب توفيق في مطلع أغنيته:

- "من غير كلام أفضل، أصل السكوت أجمل".

فتقول لي وهي تستحضر شخصية لمحمد هنيدي في أحد أفلامه:

- "من غير كلام أفضل" هي بعينها "أصل السكوت أجمل"، لماذا تكرّر كلامك هكذا؟ هل نحن فارغون للف والدوران؟ ما الذي تريده يا صديقه حسن؟

ينظر لي الضابط حسن وهو يضع يده على بطنه، فأقول لها:

- نحن عابرا سبيل يا أم حسن، ونريد أن نأكل.

تقول بتلقائية:

- فداؤكم الأكلُ كلُّه. فداؤكم كلُّ الأكلِ. ابعدا قليلا.

تكوّر يدها على الجوّافة التي مازالت في يدها وتقذف بها نحو خارج الباب لأعلى في الهواء. تصطدم الجوَّافة بديكٍ روميٍّ طائرٍ في الهواء، فتثبِّته، ولا أعرف كيف يطير الديك الرومي ولا مِن أين جاء!

تنظر التي تُنْكِرُني نحو الديك الرومي، وينظر الديكُ نحوها، وأكاد أرى في عينيه ابتسامة، ويبدو أنه يستحضر شخصية أخرى هو الآخر، فها هو يهزُّ رأسه ويحركها لأعلى ولأسفل، ثم يثبّتها على الحركة لأسفل، ويبدو كما لو كان قد لفظ أنفاسه، فتشير له أمي بإصبع يدها، وللغرابة أجده يتحرك نحوها مباشرةً كما لو كان منوَّمًا مغناطيسيًّا. ولا أدرى لماذا أتذكَّر يدًا مضمومة إلى صدر شخص ما وأتذكّر الطيور الأربعة الذين يأتون سعيًا نحو سيدنا إبراهيم، ولا أذكر إن كانت اليد المضمومة إلى الصدر هي يد في قصيدة كتبتُها من قبل أم أنها تأتي سعيًا نحوي من مكان مجهول في ذاكرتي، لكن الديك الرومي لا يسعى، ويبدو كما لو كان ميِّتًا. يحطُّ في حِجْرِ أمّي ويفتح عينيه، وأسمعه يقول:

- ألم تصدِّقي بعد يا أم حسن؟ ها هو حسن جاء إليكِ سعيًا.

ويشير إلى نفسه وإليّ وإلى الضابط حسن، ثم يكمل كلامه لأمي:

- لماذا لا تأتين إلى نفسِكِ سعيًا يا أم حسن؟

تظلُّ أمي مذهولةً ولا تستطيع أن تقول شيئًا. وعندما تخرج من ذهولها، تقول:

- يا ولدي، يا ديك البرابر وديك البراري وديك البرابرين، الضيوف جوعى ولا نريد أن يأكلَ الناسُ وجوهَنا.

يقول لها الديك:

- فاتَكِ العيبُ يا أم حسن. الضيف له حقٌّ. وأنا فداءُ ضيوفك. أعطيني بَرَكَتَكِ يا أم... يا أمّي.

تُمَلِّسُ على رقبتِه وتتمتم ببعض الكلمات، وبعدها تقول لي:

- قم يا ولد هات جبنة رومي من الثلاجة.

أجد الجبنة الرومي أمامي مباشرة عندما أفتح باب الثلاجة. يقول الديك الرومي باسمًا:

- ما الذي جرى يا حاجَّة؟ هل اسمي ديك رومي يعني أن تؤكّليني جبنة رومي؟!

تضربه بخفَّةٍ على جناحه وتقول له:

- الأصول أصول يا ديكي. هل أجيء لك بماجدة الرومي لتأكلها؟

يقاطعها الضابط حسن ويقول لها:

لا، هاتي له مسلسل "ربع رومي".

ويضحك. أستغرب هذا القلش الرخيص في مثل هذا الموقف، وأحس بأننا في مسرحية عبثية فعلا. ولكن الديك يضحك وتضحك أمي أيضا، ولكنها تقطع ضحكتها وتقول:

- حدُّ اللهِ يا ولدي بيننا وبين المساخيط.

أقول لها:

- هل كنتِ تتفرّجين على مسلسلات رمضان هذا العام يا أمي؟

تنظر لي نظرة طويلة أرى فيها نظرتها الحنونة القديمة لي، لكنها سرعان من تعدّل نظرتها وتقول:

- أين نحن وأين رمضان يا ولدي؟ فاتَ منذ شهور، وباقية عليه شهور. والذي لا يجهلك يعرفك.

أقول لها:

- اسمها: الذي لا يعرفك يجهلك.

تربّت على جناح الديك الرومي وتقول له:

- ردّ عليه أنتَ يا فادي.

يقول الديك الرومي:

- الذي يريد أن يجهلك يجهلك، والذي يريد أن يعرفك يعرفك، والأم دائما على حقّ: الذي لا يجهلك يعرفك. الكلام شارح نفسه.

تقول أمي:

- تسلم يا ولدي. لكن الضيف على حق أيضا. هيّا يا بطل. أعطِ الضيفَ حقَّه.

يدور الديك سبع دورات في حِجرها، ثم يبدأ في التحرك بعيدًا عنها. يقف في ركن على يسارنا، ويبدو كما لو كان يسجد أو يصلّي صلاةً ما. وأجد ريشَه يبدأ في السقوط، ثم يصعد منه بخارٌ، ثم تنفتح بطنُه، وأرى أحشاءه تخرج منه وتتكوّم جانبًا. وأجدني أحرِّك إصبعي لأعلى كما لو كنتُ جالسًا أقرأ التشهد وأنا أصلي. وأجد أمي والضابط حسن يفعلان نفس الشيء. وأجد نفسي أمسك بكوب ماء في يدي أدركُ أنه ماء زمزم، وأبدأ في سكبه على شعر رأسي، وأُدَلِّكُ شعري كي يصل ماءُ زمزم إلى كلِّ مَنْبَتِ شَعَرَةٍ فيه، كما أفعل دائما أثناء أدائي للعمرة. وأسمع صوتَ ماءٍ يغلي، ويتزايد تصاعدُ البخارِ من الدِّيكِ، كما لو كان موضوعًا في ماء يغلي على موقد. أسمع صوت بطني، ويتحسس الضابط حسن بطنه، وأمي كذلك. ونسمع صوت شيء يُحَمَّرُ في الزيت. وتتسارع حركات أصابعنا صعودًا وهبوطًا، كما لو كانت تكرر السجود. ولا يوقفنا إلا صوت الديك وهو يقول:

- بالهناء والشفاء، مطرح ما يسري يمرئ.

وما أن ينتهي من كلامه حتى يتحرك نحو المنضدة الموجودة بين دِكَّتينِ في جانب الصالة، ويضع نفسه على طبق كبير فوقها، ويحرّك رأسه، فتمتلئ المنضدة بأطباق أخرى فيها طبيخ وأرز وسلطة. تنهض أمي وهي في قمة شبابها دون أن تظهر عليها آثار مرض أو شيخوخة، وتقول:

- الأصول أصول يا ضيوفي الكرام.

وتنتزع قطعةً من صدر الديك الرومي وتضعها في فم الديك الرومي ذاته وهي تنظر إلينا وتقول:

- طبّاخ البَرَكَةِ لازم تحلُّ فيه البركة. السلام عليك طعام قوم مؤمنين، السلام عليك طعام قوم جائعين، السلام عليك طعام قوم راجعين. تفضلوا يا ضيوفي الكرام، تفضّلوا.

وتشير بيدها نحونا فيما معناه أن ننتقل لتناول الطعام. أُسَمِّي الله وأبدأ في تناول الطعام. وعندما أضع قطعة من لحم الديك الرومي في فمي، أقول لأمي:

- طَعمُه يشبه طعمَ ثمارِ البنزين يا أمّي.

تحاول أن تنقل كلامًا بعينيها للضابط حسن، ولكن من الواضح أنه لا يستوعب كلام عيونها، وعندما تيأس من فهمِه لإشارتها تنظر لي مباشرة وهي تُخرج شيئًا من جيبها وتقول:

- ثمار بنزين مثل هذه يا حسن؟!

وما إن تُنهي كلامها ترميني بثمرة، وترمي الضابط حسن بثمرة، فأحسُّ بألم في رأسي، ويعبّر الضابط حسن عن ألم في رأسه وهو يقول:

- لماذا؟ لم أشبع بعد.

تقول أمي بلهجة صارمة في سياق يبدو لي وللضابط حسن حلقةً مفقودةً أو نصفًا مجهولًا:

- انتهى الأمر. لقمة هنيئة تكفي مائة. كُلُّ واحدٍ منكما يعتبر نفسَه مائةَ بطنٍ. واللقمة التي نزلتِ البطن ستصبح مائة لقمة هنيئة مريئة. هيا نشرب الشاي.

يختفي كلُّ شيء من على المنضدة وأجد أكوابًا فارغةً عليها. أسأل أمي:

- أين الشاي يا أمي؟

تقول لي:

- قُلْ أمي كما تشاء. الشاي أمامك يا ولد.

أنظر أمامي. ما زالتِ الأكوابُ فارغةً كما هي. أقول لها:

- الأكواب فارغة يا أمي.

تقول بنبرة المعتذر والمتأسف:

- سامحني يا ولد. الشاي في رأسك.

أتحسّسُ رأسي. لا توجد إلا آثارُ ألمِ خبطةِ ثمرةِ البنزينِ وآلامُ أشياءٍ أخرى لا أتذكَّرُها. أقول لها:

- لا يوجد في رأسي إلا الألم يا أمي.

تقول لي باسمةً:

- أنا أعرف ذلك يا ولد. لستَ في حاجة لأن تتكلم.

وتوجه كلامها إلى الضابط حسن:

- أعطِه كوبَ شاي يا حسن.

يقول ضاحكًا ومتفاكها:

- ألم رأسي يكفيني بالكاد. ليس لدي منه فائض.

تقول له:

- الطمع لا يُشبع أحدًا يا ولدي...

أقول لها:

- أعطيني من شايك يا أمي.

تقول لي:

- قلبي لا يطاوعني يا ولد.

أقول له وأنا أحاول أن أخفي غضبي وغيظي:

- هل يمكننا أن نخرج من بحر الألغاز هذا إلى نهر السمك يا أمي؟

تقول لي بهدوء وتسليم:

- لا مشكلة يا ولد. يعيش السمك في الماء، ولكنه يعيش في البحر أيضا.

أقول لها بحدة:

- أنا عطشان.

تقول لي بحنو:

- فداؤك نهري كلُّه يا ولد. ولكن أين ثمرة البنزين؟

أشير بيدي نحو طرف الدكّة وأقول لها:

- ها هي.

تقول لي وهي تمسك بالكوب الفارغ:

- الكسل ضارٌّ يا ولد. هات الثمرة.

لا أعرف معنى الكسل هنا، ولا أعرف لماذا تناديني بـ "يا ولد"، وليس "يا ولدي"، ولكنني أتزحزح قليلا وأجيء لها بثمرة البنزين. تمسكها وتسمّي الله عليها وتغرز فيها ظفرًا من أظافر يدها، ثم تعصرها في الكوب الذي تمسك به بيدها الأخرى. والغريب أن العصير ينزل من الثمرة شايًا في الكوب. تمسح بقايا لبِّ الثمرة في طرف الكوب وتمده لي، قائلةً:

- ها هو الشاي يا ولد، لم يكن الموضوع يحتمل كل هذا الكلام. هو كوب شاي في النهاية.

يصفّق الضابط حسن ويقول:

- برافو عليكِ يا أمي.

ويمسك بثمرته، وبيده الأخرى يمسك بكوب فارغ ويبدأ في عصرِ شايه في الكوب. وهو يقول:

- صحيح، الكسل ضارٌّ يا أمي.

وما أن أرتشفُ رشفةً حتى يبدأ الألمُ في الانسحاب من رأسي. فأقول لأمي:

- لماذا لم تقولي ذلك من البداية يا أمي؟

تتجاهلُ سؤالي تمامًا، وتقول:

- أين شايي أنا؟ رأسي تؤلمني.

أقول لها:

- سلامتكِ يا أمي. أين ثمار البنزين لأعصر لك منها ثمرتين كاملتين؟

تضحك ضحكة طويلة فيها قدر من الوجع وتقول:

- ما كان بالأمس بلا ثمن صار اليوم بفلوس.

يقول الضابط حسن:

- اسمها: ما كان بالأمس بفلوس صار اليوم بلا ثمن.

تلتفت أمي إليه، وهي تضحك ضحكةً متصنِّعَةً باردةً، وتقول:

- متى تعلّمتَ العَبَطَ يا حسن؟!

يقول لها محتجًّا بمزاح:

- هل ما نفعله في الناسِ سيفعله الناسُ فينا أم ماذا؟!

تقول له أمي بحدَّةٍ بصيغة الإثبات وليس السؤال:

- أم ماذا.

يبتسم ابتسامة باهتة ويعاود الجلوس على الدكَّة كولد مطيع ومهذّب، ولا أعرف إن كان يمثّل دورًا أم أنه على طبيعته هكذا. ويقول:

- أم ماذا أم ماذا. ولا يهمُّك شيءٌ يا أمي. المهم رضاكِ.

تنهض أمي من على الدكة مفزوعة وتقول:

- أين أولادي؟!! أين أولادي؟!!!

أنظر إلى حسن وينظر لي، وتقف الحيرة بيننا ولا ندري ماذا نقول. أنظر إلى أمي، أجدها مفزوعة حقًّا، ولا يمكن أن يكون هذا دورًا تمثِّله أو لغةً مختلفةً تتكلم بها. ومع أن فزعها هذا يمثِّلُ قفزةً في الكلام ويدل على وجود حلقة مفقودة في كلامها، أجدُني أقول لها:

- أين هم حقًّا، يا أمي؟ لم أرَ أحدًا من إخوتي منذ أن جئتُ أنا والضابط حسن إلى هنا!

تشير بيدها نحو بيتنا القديم الذي يسكن فيه اثنان من إخوتي إشارة تدل على أنها لا تدري. أقول لها:

- باب البيت مفتوح، ومعني هذا أنهم بالداخل.

تضحك ضحكة صافية وهي تضربني بخفة على كتفي وتقول:

- هل الغربة والموت جعلاك تنسى أصول البيت الذي تربّيتَ فيه يا ولد؟

أهم أن أسألها: "أي موت؟ وأي غربة يا أمي؟"، ولكنني أتذكر أنها ذكرتِ الموتَ والغربة بالإشارة إليّ وإلى الضابط حسن، فأتراجع عن سؤالي وأدرك أن كلامها منطقي هنا، مع أنني لا أحسُّ بأي شيء من المنطق إلا منطق الممثِّلِ سعيد صالح في مسرحية "مدرسة المشاغبين"، فأقول لأمي:

- سامحيني يا أمي، الواحد بعيد عن البيت منذ فترة طويلة، والواحد أيضا مخه لم يَعُدْ دفترًا. ذكّريني بأصول البيت.

تشير بيدها نحو باب البيت القديم وتقول في حسرة:

- الباب المفتوح يعني أنهم غير موجودين في البيت.

أقول لها:

- هل يُعقَل أن يكونوا كلهم بعيالهم خارج البيت؟ كما أن الشمس أوشكت أن تغيب، والذي في الخارج يعود إلى بيته في هذا الوقت.

تقول لي بتأكيد:

- غير موجودين في البيت يا ولد. هم غير موجودين، ألا تسمع؟

أحسُّ بأن ستارًا يُسْدَلُ على المشهد، كما لو كنا في نهاية فصلٍ من مسرحية ما، خاصةً مسرحية "بيت الدمية" لهنريك إبسن، فهي تنتهي ببابٍ مفتوح تخرجُ منه البطلة بعد أن تنتفض وتتمرّد على قيودها، وربما كان الباب المفتوح يستدعي ذلك، فهو دعوة للخروج، وربما كان يستدعي الدخول أو يُغوي الواقف أمامه أو العابر من أمامه بالدخول، كما في ذلك الباب الذي اصطادني في رواية أخرى[1]، كما أتذكّرُ كتابَ "الباب المفتوح"، ولا أذكر إن كان سيرةً ذاتيَّةً للطيفة الزيّات أم لكاتبة أخرى. وأجدني واقفًا أمام باب آخر وأحسُّ

[1] رواية للمؤلف في مرحلة الكتابة.

الكاهنة على التمرُّد على انغلاق الباب في وجه العامة الذين لا يملكون القرابين الثمينة التي يمكنهم أن يهدوها للكهنة في أبيدوس[١]، فأبتسمُ في موقف لا يستدعي الابتسام في ظاهره، وأتساءل: "هل أمّي امرأة؟" فلا توجد أي امرأة منذ أن بدأ هذه الحلم الغريب أو هذه الرواية الأغرب، وكأن المرأة تبتعد عن المشهد الآن لأنها تعرف أمنها هي التي عليها أن تبدأ الحياة من جديد بعد كل ما فعله الرجال بالأرض.

لا أعرف إن كنتُ أنا ممثِّلًا في هذه المسرحية أم أنني مجرد مُشَاهِد، حتى لو كنتُ مشاهِدًا في مسرحية من مسرحيات برتولت بريخت، ويحقُّ لي أن أتدخّل في أحداثها وأتداخل معها. وأتذكر أيضا كلام شخص لي في حلم سابق أو رواية سابقة[٢]، شخص يحدثني عن الظلام أو الفاصل بين مشاهد المسرحية أو فصولها، ويقول إن هذا الفاصل لحظة تكوين وتشكيل وتحوُّل، وإن وعي الشخصيات يختمر في هذا الفاصل بحيث تنتقل إلى مرحلة جديدة من حياتها بعد الفاصل، فأستبشر وأحسُّ بأنني سأنتقل إلى مرحلة المنطق والأحداث المفهومة بعد ذلك مباشرة.

---

١ رواية "جبل النور" للمؤلف.

٢ رواية "جبل النور" للمؤلف.

الفصل السادس

ترفع أمي وجهها الذي كانت تدفنه بين كفّيها، وتنظر حولها كأنها مستيقظة للتو من النوم. تفرك عينيها كأنها لا تصدِّق شيئًا، وتشرد قليلا كأنها تسترجع شيئًا ما أو أنها سقطتْ في دوّامةِ أفكارٍ وتحاول أن تخرج منها، وها هو وجهها يتهلل وتنهض غير مصدِّقَةٍ وتحتضنني بلهفة، قائلة:

- أين كنتَ يا ولد يا دكتور؟

الحمد لله أنها في حضني الآن، وإلا لكانت رأتِ الدهشة والاستغراب على وجهي، فما معنى سؤالها هذا؟ ألم أكن معها منذ دقائق ولساعات طوال في ذلك الذي ظننتُه مسرحية عبثية؟ ألم تُنْكِرْني منذ قليل وتخلط بيني وبين الضابط حسن الذي أنكر هو الآخر أن اسمه حسن العالي، كما كان يؤكد من قبل؟

أحتضنُ أمي بشدة، ولا أعرف لماذا أحسُّ بأن صدرها خاوٍ، وكأنها صارت هواء أو هيكلًا عظميًّا، مع أنني أراها بصحَّةٍ جيِّدَةٍ. وعندما تَخرج ببطء من حضني، أسألها بجديَّةٍ:

- من أنا يا أمّي؟

تتحسّس رأسي وتقول:

- سلامتك يا ولدي. هل تتوه أمٌّ عن ولدها؟

أسأل نفسي: "هل أنا الذي كنتُ تائهًا إذن؟" لم أعرف أنني كنتُ ابنًا ضالًّا مع أنني عائد منذ ساعات إلى أرضي. يبدو أن أمي لم ترَ في وجهي اطمئنانًا، فها هي تتحسّس جسمي من جديد، ولا تستقر عيناها على شيء، ولا ترتسم فيهما علامة اطمئنان، بل على العكس، تزداد علامات القلق والحيرة والارتباك على وجهها وتقول:

- أنا آسفة يا ولدي؛ عاملتُك على أن أباك مازال حيًّا وعاملتُ إخوتك الصغار على أنهم أيتام. كنتُ أظن أنني أعوّضهم عما فقدوه.

أقول لها بنبرة لا أعرف إن كانت صادقة أم كانت بغرض مواساتها وجعلها لا تشعر بالندم أكثر:

- لا يهمك شيء يا أمي. كان كله لوجه الله.

ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أقول:

- كانت غربتي عن بلدي تكفيني، ولكنكِ أضفتِ إليها غربتي عنكِ يا أمي. وقلبي لم يحتمل.

تصرخ بأعلى صوتها وتولول، قائلة:

- ابتعدْ عني يا ولدي. لماذا جئتَ إلى هناك؟ ما زلتَ صغيرًا يا ولدي، ما زلتَ صغيرًا.

أحاول أن أهدئها دون أن أعرف ما الذي تشير إليه بـ "هناك"، فأقول لها:

- لا تقلقي يا أمي، يبدو أنه حلم، لا أكثر.

تقول لي بنبرة قلقة:

- حتى لو كان حلمًا يا ولدي، فهذا لا يحل المشكلة. من الذي يحلم؟ أنا أم أنتَ؟ لو كنتَ أنتَ، فربما لا تكون هناك مشكلة فعلا. لكن لو كنتُ أنا التي تحلم، فهذه هي المشكلة، لأن هذا سيكون نداءً، وعليك أن تلبّي النداءَ.

أحسُّ بأن الكلام كبير، وأظن أن التشويش الذي حدث في الجزء السابق من الحلم، أو من أي شيء كان، يمنعني من التفكير بجدية أو بعمق في الموضوع، فمن الواضح أن هناك حلقات كثيرة مفقودة، ولا أعرف لماذا تصر الحلقات المفقودة أن تتوسط كل شيء هكذا! وفي الوقت ذاته، لا بدَّ أنْ أردَّ على أمّي ردًا مُقْنِعًا ومنطِقِيًّا يُرضيها ويحاول أن يخفِّفَ قلقَها ولو قليلًا، فأسأل الضابط حسن:

- من دون قلش يا أستاذ حسن، هل أنا في حلم أمي؟ أم هي في حلمي؟ أم أننا في حلمك أنتَ؟

يضحك ضحكة عالية ويقول:

- طبق طبقنا طبق في طبق طبقكم تقدر تخلّي طبق طبقكم يطبق في طبق طبقنا زي ما طبق طبقنا طبق في...

أقاطعه محتدًّا:

- الموضوع لا يحتمل المزاح ولا القلش. سألتُك سؤالا وعليك أن تجيب عليه بصراحة.

يبتر الابتسامة من على وجهه ويقول:

- بالعقل يا دكتور، وعليك أن تتأسف أوَّلًا لأنك ستخرجني من شخصيتي إلى شخصية معقدة وثقيلة مثلك...

أقاطعه قائلا:

- أنا آسف يا سيدي. آسف. انتهينا. هل تريد شيئا آخر كي تجيبني على السؤال؟

يعدّل ياقة قميصه ويرفع رقبته لأعلى ويقول:

- يبدو أنني في دورة تدريبية. ومع أنني لا بدَّ أن أكتسب مهارات جديدة تمكِّنُني من الارتقاء الوظيفي، سأجيبك بصراحة تامة. ستظل المخاوف كما هي، فلا يمكنني أن أحسمَ شيئًا وأفتيَكَ بأننا في حلمِ مَن فينا. ما أذكره أنك دعوتني لزيارة أهلك في جهينة. وما أذكره أيضا أن أمك نادتْني بابنها عندما رأتْني وأنها أنكرتْكَ. ومع أنني حاولتُ أن أرسم أمامك دور الجاد فيما يخص الأماكن من قبل، فلا أعرف كيف أتيتُ من شرقطون إلى الجيزة ثم إلى جهينة هكذا. وأجدني هنا أستغرب كيف تخلَّتْ جهينة عن الخبر اليقين الذي عندها وتركتْنا في دوّامة الحيرة والجهل والحلقات المفقودة هكذا!!

تقاطعه أمي وتسألني:

- من هذا يا شريف؟

وتشير بيدها إلى الضابط حسن. أنظر إليها نظرة طويلة كأنها طعنتْني بسكين حادة وغائرة، وأسألها مع أنني أعرف تماما أنها كانت تحب أن تناديني باسم شريف، ولكنها في الجزء السابق من هذا الذي يبدو حلمًا كانت تقول إنني حسن:

- من شريف هذا يا أمّي؟

يبهتُ وجهُها كأنها ستسقطُ فاقدةَ الوعي، ولكنها تتحامل على نفسها وتتحرك نحوي بلهفةٍ وهي تقول:

- سلامتك يا ولدي. ما الذي حدث لك؟ هل ينسى أحد اسمه؟! يا رب، الطُفْ، لُطْفك يا رب.

أسألها وأنا أحاول أن أتظاهر بأنني أتمالك أعصابي:

- ما الذي حدث حتى تقولي كل هذا؟ ألم تقولي من قبل إن اسمي حسن؟

وأنظر إلى الضابط حسن وأسأله:

- وأنتَ، ألم تقنعني معها من قبل بأن اسمي حسن؟!

يتلعثم الضابط ولا يستطيع أن يقول شيئًا. وتنظر إليه أمي نظرة طويلة، ثم تقول لي:

- لا تظلمه يا شريف، يبدو أنه من أهل هذا المكان ويعرف لغة المكان جيدًا.

أقاطعها دون أن أتمالك أعصابي:

- مَن الذي يظلم مَن يا أمي؟ كما أنه ليس من أهل هذا المكان، هو من شرقطون، من شرقطون يا أمي التي جعلتِني أحسُّ فيها بالغربة مرتين.

وأتوجه إليه قائلا:

- ألستَ من شرقطون يا سعادة الضابط؟ هل تستطيع أن تنكر ذلك؟

ينظر لي بحدة ويقول:

- ولماذا أنكر أنني من شرقطون؟ صحيح أننا لم نكن نؤمن بالوطن إلى عهد قريب، لكنني أؤكد لك أنني من شرقطون، وأنك كنت تعمل في شرقطون أيضا، حتى لو كان كل ذلك مجرد حلم. هل تكفيك هذه الإجابة يا دكتور شريف؟ هل تكفيك؟

أهزُّ رأسي ولا أعرف إن كان ذلك مُوَافَقَةً على كلامِه أم محاوَلَةً بائسةً لتهدئتِه، ولا أعرف لماذا يهمني أن أهدّئه. تربِّتُ أمي على كتفه وتقول له:

- لا تحزن يا حسن. هو لم يقصد شيئًا. وبصراحة، لو كنتُ أنا مكانه لغضبت مثله، مع أنني أنا السبب.

يقول لها:

- لا يهمك شيء يا أم شريف. حصل خير. وبعد، أليس أهل شرقطون وأهل مصر أولادَ عمومةٍ؟!

أجد نفسي أحسُّ بحنان غريب تجاه أمي، يفوق إحساس البنوّة والأمومة، وأقول لها:

- لا تلومي نفسك على شيء يا أمّي. المهم رضاكِ.

تربّت على كتفي أنا الآخر وتقول:

- ليس لومًا يا ولدي، واعذرني يا حسن، فلقد تعمدتُ أن أناديك بابني خوفًا على شريف، الموضوع معقَّدٌ ولا أعرف كيف أشرح ما كنتُ أفكر فيه. فلقد فكرتُ في احتمال أن يكون كل ذلك يحدث في حلمي أنا، ولذلك أنكرتُ شريف. فلو كنتُ أنا الذي استدعيتُه في حلمي، فهذه علامة شؤم. فهو لم يفرغ من آلام غربته بعد، مع أن أهل شرقطون ومصر أبناء عمومة، فكيف أحتملُ أن يأتي من غربته مباشرة إلى هذا المكان؟!!

أنظر لها طويلا دون أن يفارقني الحنان الذي أحس به، وأقول لها برقة:

- وما الغريب يا أمي في أن آتي من غربتي إلى أرضي في جهينة؟

تمسحُ دمعةً تُبَاغِتُ عينيها، وتقول:

- ومن أدراك يا ولدي أن هذه جهينة؟! لم نتأكد مما إذا كان الحلم حلمي أم حلمك أم حلمه، لم نتأكد يا ولدي.

أقول لها دون أن أعرف إن كان كلامي جادًّا أم محاولةً منّي لمواساتها أو التخفيف عنها:

- أيًّا كان يا أمي، نحن الآن في جهينة، ولا يهم إن كنا لم نرَ أحدًا من أهلنا هنا حتى الآن. المهم الآن أننا معا في جهينة، وهذه أرضنا. وبصراحة، ثمار البنزين التي كانت معك تقلقني الآن، فهي تُرجعني إلى جامعة القاهرة وإلى شرقطون وتعيدني إلى هنا في الوقت ذاته، فأحسُّ بأن هناك مشكلة ما في أرضنا، ولا يُعقل أن أعيش كل سنوات الغربة لأعود وأجد أرضنا في خطر. لا يُعقَلُ أن أترك النباتات والأشجار زاهية الخضرة لأعود وأجدها منكسرة وبائسة وذابلة ومنحنية هكذا.

تهزُّ أمي رأسها كأنها تحاول أن تطرد بعض أفكارها وتقول:

- عينُ العقلِ يا ولدي، عين العقل.

يقول الضابط حسن:

- وأنا بصفتي ضابطًا لا يمكنني أن أقف مكتوف الأيدي، حتى لو كنتُ خارج شرقطون الآن. ويمكنني أن أبدأ بثمار البنزين على أساس أنها الخيط الذي سيوصلنا إلى الجريمة الكاملة.

أبتسمُ بالرغم من جديَّةِ المشهد، فما أفهمه أن "الجريمة الكاملة" هي الجريمة التي لا يوجد دليل يفكُّ لغزَها، وفي الوقت ذاته أفترضُ أن الضابط حسن خانه التعبير، وكان يقصد أن الخيط سيوصلنا إلى خيوط الجريمة بأكملها، خاصة وأنني أذكر أنه عندما كنتُ أدرّس له في بكالوريوس اللغة الإنجليزية كانت لديه مشكلة في فهم العلاقات بين مكونات الجملة وتركيبها، كأن يضع

المضاف موضع المضاف إليه، أو يضع النعت محل الظرف، أو ضمير المفعول مكان ضمير الفاعل. ومع ذلك، أشعر بالامتنان نحوه الآن، فهذه مبادرة طيبة منه، ويمكننا أن نستفيد من خبرته التي اكتسبها لاحقًا بعد أن التحقَ بالشُّرْطَةِ، بعد أن تلقّى دراسة لمدة سنة بعد تخرُّجِه. فما أعرفه عن أهل شرقطون أنهم لا يقدمون خدمة لك إلا إذا كانوا يريدون منك قضاء مصلحة لهم. وعندما لا توجد مصلحة ويتطوع أحدهم لخدمتك، فلا بد أنه يحبُّكَ فعلًا ويحرص على مصلحتك.

*****

يقول الضابط حسن الذي اتضح أن اسمه رياض الغزلاني، فلقد أرانا بطاقة هويته بنفسه:

- وبعد، لم يوصلنا كلامُنا إلى شيء، فأنتِ يا أم شريف تصرين على أن نحدد في البداية أيًّا منَّا يخصُّه هذا الحلم الذي تقولين عنه قبل أن ندخل من باب البيت المفتوح لنلمّ شَمْلَنَا أوَّلًا قبل البحث على أي خيط من الخيوط الأخرى للجريمة.

تقول أمي بحكمةٍ لم أعتدْها فيها من قبل:

- نحن الآن ثلاثة، وفي كل ليلة أسمع صوت ثلاث طلقات نارية جهة الأشجار التي وراء الغيط هناك. ولا يمكنني الآن إلا أن أربط بين عددنا

والطلقات الثلاث، مع أنني لا أعرف كيف ستصيبني الطلقة وأنا الآن خارج مجال الطلقات. لكننا لم نحسم لمن فينا هذا الحلم. وإلى أن نستطيع أن نحسم شيئًا، أرى أن الطلقات الثلاث مخصصة لنا، ولا يمكننا أن نموت جميعا موتة واحدة هكذا. ولذلك نحن في حاجة للبحث عن دليل يوصلنا إلى ما حدث لأهل البيت حتى نصل إليهم ويزيد عددُنا عن ثلاثة، بحيث إذا مات ثلاثة منا دفاعًا عنّي، يبقى بعضُنا ليحافظ على الأرض التي سنكون قد حرَّرناها بدمائنا. كما أن أرضنا ملكٌ لنا منذ قديم الزمان، ولم أسمع عن وجود مطاريد فيها. فمن أين تأتي تلك الطلقات؟ ولماذا عددُها ثابتٌ في كلِّ ليلةٍ؟ ولماذا لا نستطيع أن نحسم لمن فينا ينتمي الحلمُ؟ قُلْ لي يا شريف: أين كنتَ قبل أن تراني؟

أقول لها بتأكيد:

- كنتُ على مقهى بالجيزة مع أحد أصدقائي. وهو في الغالب هذا الضابط رياض الذي يوجد أمامكِ الآن.

تبتسم، دون أن أستطيع التوصل إلى سبب ابتسامتها، وتتوجه إلى الضابط رياض وتسأله:

- وأنت يا ابني، أين كنتَ قبل أن تراني؟

تظهر عليه علامات حيرة بالغة ويقول:

- لا أعرف كيف أصف لك الوضع يا أم شريف، مع أنني لا أنسى كثيرًا. كنتُ في شرقطون، وكان شخص بيني وبينه عداوة قديمة يحاول أن يجعلني

أفعل ما يمكّنه من أن يوشي بي لدى رؤسائي في العمل وصولًا إلى صاحب المقام. كما أنَّ شخصًا سرقَ سيارةَ شريف حاول أن يلفّق لي قضية قتل لأنني حاولتُ أن أساعد شريف في الوصول إلى سيارته، مع أن ذلك الشخص مطلوب في قضية إرهاب. وعندما تكلمتُ مع رئيسي المباشر مباشرةً، نصحني بأن أبتعد قليلا، لأن العصبيات لا ينفع معها القانون أحيانًا، ولأن الذين لا يؤمنون بفكرة الوطن يجيدون التمثيل. ولذلك أخذتُ إجازة من عملي وجئتُ إلى مصر، وقابلتُ الدكتور شريف بالصدفة على إحدى المقاهي بالجيزة، ولا أعرف كيف جئتُ إلى مصر، كما أنني لا أعرف لماذا طلبتُ منه أن نجيء إلى هنا لتناول الغداء، مع أننا كان بإمكاننا أن نتغدى سويًّا في الجيزة. ولكنني أشعر بحلقة مفقودة في ذاكرتي، وأعترف بأن معظم كلامي معكما فيما قبل كان محاولة مني لتعويض هذه الحلقة المفقودة، أي أن معظم كلامي لم يكن ينبع مني أو لا يمثل كلامي الذي كنتُ سأقوله لو كنتُ قد عثرتُ على هذه الحلقة المفقودة. وبالتالي لا أستطيع أن أحدد ما إذا كنتُ في شرقطون أم في الجيزة قبل مجيئي إلى هنا.

تنظر إليه أمي نظرة طويلة وتنقبضُ معالمُ وجهِها، كأنها تتوجّس من شيء، وتقول للضابط رياض:

- خير إن شاء الله يا ولدي، خير إن شاء الله.

أسألها:

- ما الذي تفكرين فيه يا أمي؟

تنظر لي نظرة طويلة صامتة، ثم تقول:

- لا تُشْغِلْ بالَكَ يا ولدي. وراءنا الكثيرُ لنقوم به، فحافِظَا على صفاء بالكما.

أقول لها مازحًا:

- هلْ بَعْدَ نظرتِكِ وكلامِكِ يمكن أن يأتي صفاءُ البالِ يا أمي؟ هل تقصدين صفاء الذهن؟

تقول لي بابتسامة:

- مهما كبرتَ ستظل في نظري ابنًا صغيرًا، فلا تحاول أن تتكلم كلامًا كبيرًا لسنا فارغين للتفكير فيه الآن.

يقول رياض باسمًا:

- الحمد لله أن هناك حلقة مفقودة في رأسي، وإلا لكنتُ شعرتُ بالخوف من كلامك يا أم شريف.

تقول له أمي:

- الله يحظّك ويبسط قلبك يا ولدي.

أقول له:

- احمدْ ربَّكَ أن هناك حلقة مفقودة لديك وأنها حلقة واحدة. أحسُّ بأن هناك عشرات الحلقات المفقودة في رأسي، ولم أعد أستوعب شيئًا، كأن هناك بعض الشفرات التي تم سحبُها خلسةً من بصمتي الوراثية، وأنني الآن حائر في كيفية ترميم بصمتي الوراثية حتى أستطيعَ أن أربطَ بين كل ما يحدثُ وأستطيعَ أن أفهمَ الموقف. ظننتُ أن الخروج إلى الصحراء سيمنحني استراحة محارب أستطيع فيها أن أصفّي ذهني، ولكنني اكتشفتُ أن كل الأماكن في هذا الجزء من العالم امتدادٌ لمكان واحد، قد تختلف مظاهرُه، لكنَّ جوهرَه واحدٌ، وهو أنْ تجلسَ كما نجلس الآن دون أن نفهم شيئًا...

تقاطعني أمّي:

- لا تعمِّمْ يا ولدي.

أسألها:

- أعمِّمُ ماذا؟

تقول باسمة:

- أنا أفهم بعض الأشياء.

يقول لها رياض:

- نوّرينا يا أمّي.

تقول له بتوجُّس:

- لا يصحُّ يا ولدي. ما لم نحسم لمن فينا ينتمي الحلم، سيظلُّ عالمي أنا خارج هذا الامتداد الذي يتكلم عنه شريف.

أحسُّ بعذوبة اسم شريف على لسانها، وأحمد الله أنها لا تشير إليّ باسم رائد، فلا يمكن لأي رائد أن يكون رائدًا وهو في كل هذا التشويش الذي أحسُّ به.

تنظر أمي نحوي وتقول:

- لا أستطيع أن أفتيك بشيء يا ولدي، أحسُّ بفجواتك وحلقاتك المفقودة، ولكنك أكلتَ من الديك الرومي وشربتَ شاي ثمار البنزين، وإن شاء الله يصير لكما كل الخير.

ثم تلتفت إلى رياض وتقول:

- بخبرتك الأمنية يا رياض، هل تعتقد أننا يمكننا أن نصل إلى شيء؟

ينظر لها رياض نظرة غبية، ويسألها:

- في أي شيء بالضبط يا أمي؟

تقول له بهدوء تام:

- في أي شيء.

يقول لها بنبرة تأمُّلٍ:

- لا يمكننا أن نُشَتِّتَ أنفسَنا في كل الاتجاهات يا أمي، وكما يقول المثل في مصر هنا: الذي لا تقدر عليه، سَيِّبْه في حاله...

أنظر إلى أمي وتتساءل أعيننا عما إذا كان هناك مَثَلٌ عندنا بهذا المعنى. ويبدو أننا لا نتفق على شيء.

يقاطع رياض نظراتِنا، قائلا:

- لا تهم صيغة المَثَل، المهم أن هناك أشياءً الآن فوق طاقتنا. وعلينا أن نخطو خطوةً بخطوةٍ دون أن نشتت أنفسنا في جميع الاتجاهات. نحن الآن ثلاثة، وهناك طريقان: طريق باب البيت المفتوح، وطريق الطلقات الثلاث التي تصدر يوميًّا وراء الأشجار. وبعد أن نصل إلى شيء، يمكننا أن نعود إلى الفجوات والحلقات المفقودة، وإلى تحديد ملكية الحلم، وإلى الخيوط الأخرى للجريمة التي لا تتضح معالمها الآن. أقصد أن الخيوط هي التي لا تتضح معالمها، وليست الجريمة، فمن الواضح أن هناك جريمة. وأنا شخصيًّا لا أستطيع أن أَعِدَ بشيء رسمي، لأنني لا أعرف ما الذي سيحدث لي في وظيفتي، وإنما أستطيع أن أعد بكل ما في وسعي بشكل شخصيٍّ...

أقاطعُه عندما أرى طفلًا صغيرًا يسير نحو الباب المفتوح:

- يبدو أننا وصلنا إلى أول خيط. ها هو إنسان رابع ظهر في الصورة. انظرا.

وأشير بيدي نحو الساحة أمام باب البيت المفتوح. يقول رياض بصوت آمر:

- قف عندك.

يتوقف الطفل وينظر نحونا. لكن أمي تقول:

- سلامتكما. هذا الذي كان ينقصنا! ما الذي حدث لكما؟ لا يوجد أحد. لا يوجد طفل، ولا رجل، ولا أي أحد.

أضحك ضحكة أحسُّ بأنها بكاء، ولا أعرف إن كنتُ أبكي على نفسي لأنني وصلتُ إلى مرحلة التهيؤات أو الهلوسة، كما يتضح من كلام أمي، أم أبكي على أمي لآنها لا تستطيع أن ترى ما نراه أنا ورياض. يقول رياض:

- لا تقلقي يا أمي. لا بد أن أتأكد أولا.

وينهض من بيننا نحو الطفل. يتراجع الطفل للوراء قليلا، لكنه لا تظهر عليه علامات خوف واضحة. يبتسم رياض للطفل ويقول له:

- أهلا بك يا حبيبي. ألن تسلِّم على عمك رياض.

يمد الطفل يده ويسلّم على رياض دون أن تظهر على وجهه ابتسامة أو علامات خوف. يصيح رياض:

- هو طفل حقيقي يا أمي، طفل حقيقي.

الفصل السابع

تجلسُ أمي مفزوعةً والطفلُ بيننا، فهي لا تستطيع رؤية الطفل ولا حتى سماع صوته، مع أنه يناديها بأنها جدته، ومن الواضح أنه يعرفها جيِّدًا، وأستشفُّ من كلامه أنه رأى صورتها معلقة على أحد جدران البيت، مع أنني لا أعرفه، ولا أستطيع أن أحدد ابن مَن هو مِن إخوتي، فمن الواضح أنه وُلِدَ في غيابي، مع أنني كنتُ أتواصل مع إخوتي بالهاتف وأعرف أبناءهم جيِّدًا. ولكن هذا الطفل يذكر اسمًا لأبيه ليس من بين إخوتي، كما أن أسماء أعمامه التي يذكرها لا علاقة لها بنا. ولكنني عندما أتذكر خلط أمي بين اسمي واسم شخص آخر، وذِكرَ رياض اسمًا مختلفا لنفسه في البداية، أدركُ أن هناك مشكلة وحلقة مفقودة في الأسماء في هذا السياق الذي لا أعرف إن كان حلمًا أم واقعًا، ولا أعرف سبب هذه البلبلة، ولماذا الأسماء بالذات؟

أحاول أن أستشفَّ من الطفل الذي يقول إن اسمه زاهر اسمَ أبيه الحقيقي. أنوّع أسئلتي له، ولا تجدي أسئلتي نفعًا، فمن الواضح أن الطفل صغير ويخلط بين الأمور، أو أنه لا يستطيع أن يميز بين الأشخاص جيِّدًا، ولا يستطيع أن يصف شخصًا بدقة، أو أن الأمورَ ذاتها مختلطة، وما يحدث مع هذا الطفل ما هو إلا انعكاس للصورة الأكبر. وما زاد الطين بلة أن أمي لا تستطيع أن ترى حفيدها ولا أن تسمع صوته، مع أنه جالس بجانبنا ويتكلم

معنا جميعًا، أو بالأحرى يجيب على أسئلتنا، فمن الواضح أنه مازال لا يثق فينا ثقة كاملة، وفي الوقت ذاته لا يخشانا، ويجلس بيننا كما لو كان كبيرا مثلنا.

أسأله:

- هل تعرف عمك شريف؟

يقول لي بنبرة أحسُّ بأنها صادقة تمامًا:

- لا يوجد عم لي اسمه شريف.

أسأله:

- هل تعرف عمك رائد؟

يقول بالنبرة نفسها:

- لا يوجد عم لي اسمه رائد.

وينظر إليّ طويلا ويقول:

- لا نسمّي مثل هذا الاسم في جهينة. لم أسمع طوال عمري عن شخص اسمه رائد في جهينة.

ويعبث في ذقنه كما لو كانت له لحية طويلة، ثم يقول:

- الذي يعيشُ يرى كثيرًا. وها أنت تقول إنَّ في جهينة شخصًا اسمُه رائد. ما معنى كلمة رائد؟

لا أعرف إن كان سؤاله حقيقيًّا أم أنه يعبِّر عن سخريته بطريقة لا أعرفها، فكلامه وثقته بنفسه يقولان بأنه يعرف الكثير، ولكن نبرته في طرح السؤال توحي بأنه يريد أن يعرف معنى الاسم فعلا، فأقول له:

- رائد تعني أن الشخص يسبق الآخرين، أي أن يكون قبلهم على الطريق، ويأتي لهم بأشياء جديدة وبأخبار جديدة.

يحكُّ شعر رأسه وينظر إليّ طويلا، ثم يقول:

- ولماذا يكون قبلهم على الطريق؟ لماذا هو مستعجل؟ وهل هناك شخص يكون مستعجِلا على الدوام؟ في جهينة، الناس يأخذون كل شيء بالراحة، إلا إذا كان ذلك الرائد شمَّ رائحةَ أكلٍ وسبقَ الناسَ ليأكل الأكل وحده ويترك باقي الناس يبحثون عن الأكل ولا يجدونه.

أحسُّ بأنه يتكلم على مستوى آخر مختلف تمامًا عن كلامي، وفي الوقت ذاته أجد أن كلامه له منطقه الخاص، مع أنَّ ما أستشفُّه من كلامه ينذر بسوء، وينمُّ عن أنَّ هناك تغيُّراتٍ حدثتْ في فجوةٍ من الفجواتِ لا تبشِّرُ بخيرٍ. وفي الوقت ذاته لا أعرف كيف أردُّ على زاهر، فأحيد بمسار الكلام وأقول له:

- ماذا أكلتَ اليوم يا زاهر؟

يضحك ضحكة طويلة ويقول:

- اليوم؟! وهل سيفرق اليوم عن كل يوم يا غريب؟

أسأله:

- لماذا تقول ذلك؟ لا أظن أن سؤالي يستدعي كل هذا الضحك. كما أنني عمُّك ولستُ غريبًا.

يسألُني:

- ما معنى كلمة "يستدعي"؟

أقول له:

- أنا آسف. يستدعي الضحك تعني يُخَلِّيكَ تضحك.

يقول بنبرة جادة:

- نعم، فهمتُ، وهل هذا يحتاج إلى سؤال؟ أضحكُ لأنك تقولُ كلامًا يقول بأنك لستَ من هنا، وأنا لم أتأكد من أنك عمي أم لا، ولولا أن جدتي تتكلم معك كما لو كنتَ قريبًا لها لقلتُ إنك لستَ من هنا. وبعد، لماذا تحضر ضابطًا معك إلى هنا إذا كنتَ من هنا فعلا؟

أنظر إلى رياض ولا أدري ماذا أقول. أشير له بطرف عيني كي يقول شيئًا، فأحسُّ بأننا لسنا في حاجة إلى تعقيد أي أمر من الأمور الآن، خاصة وأن زاهر هو الخيط الوحيد الذي سيقودنا إلى فهم ما يحدث. يقول رياض وهو ينظر إلى زاهر مبتسمًا:

- صحيح أنني ضابط شرطة، لكنني إنسانٌ أيضًا ولي أصدقاء، وعمُّكَ رائد صديقي ودعاني للغداء هنا في جهينة.

ينظر له زاهر من جميع الاتجاهات، ثم يلتفت بعيدًا عنا جميعًا، ولا أدري أي جزء من كلامه يجعله ينظر هذه النظرة المُتَفَحِّصَةَ، ولكنها في كل الأحوال تنمُّ عن شكٍّ، ولا أعرف إن كان هذا الشك في معنى الكلام ذاته، أم في شخصية رياض، أم في صداقتي مع رياض ذاتها! مرة أخرى، لا أعرف ماذا أقول له، فأنظر إليه طويلًا وهو يدير وجهه بعيدًا عنّا، وأقتربُ منه قليلًا وأضع يدي على كتفه الصغير، قائلًا:

- انظرْ يا زاهر.

يلتفت نحوي، ويبدو أنه على استعداد لأن ينصت إلى كلامي، فأقول له:

- يبدو أنني غريبٌ فعلًا عنكَ، ومن الواضح أيضًا أنَّكَ غريبٌ عنّي. وهذا الضابط ضيفٌ هنا، وجدَّتُكَ هنا تشهد على كلامنا....

يقاطعني بضحكة أحسُّ بأنها طفولية:

- كيف تشهد علينا جدتي وهي لا تراني ولا تسمعني؟!!

لا أجدُ ما أردُّ به على سؤاله، فأقول له:

- دعك من جدتك الآن، فمن الواضح أنها مريضة ولا تستطيع رؤيتك أو سماعك. ها نحن ثلاثة: أنت وأنا وعمك رياض.

يقاطعني قائلا:

- هل تظن أنني عيّل عبيط حتى تضحك عليّ؟

يقول رياض:

- من قال ذلك؟ أنتَ أكبرُ منَّا نحن الاثنين، وأنت الذي تعرف كل شيء هنا، وكما قال عمك... آسف، كما قال صديقي رائد، كلنا غرباء عن بعضنا البعض. وأنت صاحب البيت، ونحن ضيوف.

يضحك زاهر ويقول:

- أنت الآخر تضحك عليّ.

يقول رياض مستغربًا:

- أنا لم أضحك عليك. كيف ضحكتُ عليك؟ قُلْ لي.

يقول زاهر:

- أين البيت الذي أنا صاحبه؟ هل تقصد ذلك الباب المفتوح؟ يوجد باب مفتوح من الجهة الأخرى أيضًا. هو طريق، وأنا أعبره في الليل لأنامَ وأحميَ نفسي من طلقات النار كل ليلة. الحياة أصبحت صعبة يا رجال، ولا تسألني كيف أصبحت صعبة، لأنني لا أعرف منذ أن وجدتُ نفسي هنا وحدي. وسأكون صادقًا معكما، لم يكن هنا إلا باب واحد مفتوح، وكنتُ نائمًا. ولكنني عندما استيقظتُ من النوم، لم أجد أحدًا. رأيتُ كابوسًا في منامي، وظننتُ أنه مجرد كابوس، لكنني فهمتُ بعدما استيقظتُ أنها كانت معركة كبيرة ولم تترك لي أحدًا أو شيئًا. وبعد، تركتكما تتعاملان معي على أنني طفل، ولكنني هكذا منذ سنين، منذ تلك المعركة ولم يكبر جسمي أبدًا. أحسُّ بأنني أكبرُ داخلي، ولكنَّ

جسمي كما هو، ولا تسألني لماذا لا يكبر جسمي؟ قد تقول إنها لعنة، وقد أقول أنا ذلك أيضا، ولكنني لا أعرف شيئًا، حتى أنني لا أذكر الآن شكلَ أحدٍ من أهلي، ولا أعرف كيف أذكر شكل جدتي فقط!!

تسأل أمي:

- هل قال أحدٌ شيئًا عن شكلي؟ ماذا حدث لشكلي؟

أقول لها:

- كلُّ شيءٍ بخيرٍ يا أمي، وشكْلُكِ شكْلُ شابَّةٍ جميلةٍ، يا مُزّة.

تقول على الفور:

- عيبٌ عليك يا ولد، عيبٌ عليك! سمعتُ صوتًا يذكر شكلي، وليس صوتك ولا صوت رياض. ولا أعرف إن كان صوتًا حقيقيًّا أم أنه صوت كان مدفونًا في رأسي!

أحسُّ بأن الوضع خرج خارج نطاق فهمي ونطاق السيطرة أو الاحتواء، وبأننا قد نعود إلى نقطة الصفر إذا تتبَّعْنا صوتَ زاهرٍ وصوتَ أمّي. ولا أدري لماذا أخشى اكتشافا كاكتشاف أوديب، وربما أجدني أنا الجاني المجرم المسؤول عن كل هذا التشويش، وربما أجدني قد ارتكبتُ جريمة شنعاء في حق المنطق، وعليّ أن أقبل ساعتها بمنطق الاكتشاف والبحث عن الحقيقة. فأفكر في طريقة نعود بها إلى نقطة بداية نستطيع منها أن نتوصل إلى شيء، مع أنني أحسُّ بأنَّ إحساسَ أمي بالصوت الذي يتكلم عن شكلها ناتجٌ عن كلام

زاهر. ولو واصل زاهر الكلام ربما تستطيع أمي أن تراه. وفي الوقت ذاته، لا أريد أن أفوّت مثل هذه الفرصة، فأقول:

- ما رأيك يا زاهر في أن تظلَّ من جدتك وأذهب أنا والضابط رياض لنستكشف الباب المفتوح؟

تبدو عليه علامات الحيرة، ويحبس كلامًا يريد أن يقوله، ولكنه لا يستطيع أن يحبسه طويلًا، إذ يقول بعد تردُّدٍ:

- نعم، هي جدتي، وأنا أعرفها، لكن كيف أجلس مع شخص لا يراني ولا يسمعني كأنني لا وجود لي؟

أقول له:

- ألم نتفق على أننا غرباء؟

يقول لي:

- نعم، اتفقنا، ولكننا أيضا لا يمكننا أن نظلَّ غرباء.

أقول له:

- هذه مشكلة سنحلُّها فيما بعد. أنا شخصيًّا في رأسي ألفُ سؤالٍ وسؤال، مثل السؤال الذي تسأله أنت بالضبط. لكنني قررتُ أن أؤخّر أسئلتي إلى وقت آخر. وعلينا الآن أن نفعل شيئًا. سأذهب مع الضابط رياض إلى الباب المفتوح، وتبقى أنت مع جدتك، وكلّمْها عن كل شيء. ومَنْ يدري، فربما كنتُ أنا والضابط رياض شياطين، ولن تسمعك جدتك إلا بعد أن نبتعد.

تقول أمي:

- مع أنني لا أفهم شيئا ولا أعرف لماذا تكلّمُ شخصًا ليس له وجود، تبدو أنها خطوة قد تفتح الطريق يا ولدي، ونحن نتعلق الآن بأي قشة حتى لو كانت لا تدخلُ عقلي.

أقول لها:

- على بركة الله يا أمي.

وأشير إلى رياض بأن يأتي معي نحو الباب المفتوح.

الفصل الثامن

هل الباب هو الشيء المصنوع الذي يسدُّ الفراغَ المخصص له؟ أم أنّ الفراغَ ذاته هو الباب؟ أم أنه لا هذا ولا ذاك؟ ما أعرفه أن هذا الباب كان عبارة عن درفتين، ولكنه الآن درفة واحدة، ونِصْفُها غير موجودٍ، وكأنَّ أحدًا شقَّها نصفين وأخفى نصفًا منها، ليصير هو الآخر نصفًا مجهولًا لا يمكن الوصول إليه، ككل تلك الحلقات المفقودة أو الضائعة في كل ما يحدث. يتحسس رياض نصف الدرفة الموازي للحائط على يسارنا، فيجد أنها ثابتة على حالها من زمن، وأرى بعيني خيوط العنكبوت وذرات الغبار وأوراق النباتات المتجمعة عشوائيًّا تحت نصف درفة الباب. لولا أنني متأكِّدٌ تمامًا من أنَّ هذا البيتَ بيتُنا، مثل تأكُّدِي تمامًا من جلوسي مع أمي منذ قليل أمام بيتنا الآخر الذي يوجد بعد مسافة قصيرة على يمين هذا البيت، لقلتُ إن هذا البيتَ بيتٌ تاريخيٌّ أو أثريٌّ مهجورٌ، أو مجهولٌ هو الآخر ولا تعرف عنه وزارةُ الآثارِ شيئًا.

السقيفة بلا أي شيء، لا يوجد فيها أثاث أو أية أشياء كالأجولة أو معدات العمل في الغيط. وباستثناء آثار أقدام يبدو أنها أقدام زاهر، لا يوجد أي شيء يدلُّ على أن هناك حياة تدخل إلى هذا البيت أو تخرج منه. على يمين السقيفة الغرفة التي كنا نستخدمها مخزَنًا نخزّن فيه الغلة والخبز والجبنة القديمة

وأدوات الحقل التي كنا لا نستخدمها إلا من آن لآخر، وعلى يسارها الغرفة التي كان جدي ينام فيها في أواخر أيامه ثم كان ينام فيها أبي من بعده. عندما أخبرُ رياض بذلك، يقترح أن يستكشف هو غرفة منهما وأستكشف أنا الغرفة الأخرى. أقول له:

- أليس من الأفضل أن نظلَّ معًا، فلا نضمن ما الذي يمكن أن يحدث؟

يضحك ضحكةً متوجِّسَةً ويقول:

- هل صَدَّقْتَ أنَّ كلَّ ذلك حقيقيٌّ؟ هلْ حقيقيٌّ أن أجيءَ من شرقطون إلى هنا؟ وهل حقيقي أن تأتي ولا تجد أهلك وكأن الأرض انشقتْ وابتلعتهم؟ يا رجل، خلِّها على الله. أنا سأدخل في هذه الغرفة.

ويشير بيده إلى باب الغرفة التي على يمين السقيفة، فأسأله باستغراب:

- لماذا هذه الغرفة وأنت لم ترَ أيا منهما من قبل؟

يبتسم ابتسامة فيها قدر من الخجل ويقول:

- كنتُ أتابع برنامج فهد الراجحي على اليوتيوب.

أبتسمُ ابتسامةً فيها بعضُ المرارةِ أو السُّخْرِيَةِ وأسأله:

- ومن فهد الراجحي يا باشا؟

يقول لي:

- أخيرا نطقتَها؟!

أنظر إليه دون أن أفهم شيئًا، وأسأله:

- ما التي نطقتُها؟

يبتسم ابتسامة واسعة ويقول:

- يا باشا. أخيرا أحسُّ بأنني صديقك فعلا.

أضحك عندما أتذكر أغنية قديمة جدا للفنان كاظم الساهر، وأقول له:

- "لا يا صديقي".

يقف مبهوتًا كأنه لدغته عقرب، فأقاطع حالته وأقول:

- لن نقضي اليوم كله هكذا. ما علاقة مَن تقول عنه إنه فهد الراجحي باختيارك للغرفة التي على اليمين؟

يقول لي بنبرة المعتذر:

- لا تؤاخذني يا باشا، يبدو أن بيتكم بيت أشباح، وفهد الراجحي له برنامج على اليوتيوب يذهب فيه في كل حلقة إلى مكان مهجور...

أقاطعه، سائلا:

- هل هو مكان مهجور أم مكان مجهول؟

وأضحك، فيشاركني الضحك، ثم يقول:

- كنتُ أظن أن كلامي سيغضبك.

أقول له بتبرة لا أستطيع أن أحدِّدَ مغزاها:

- أنا شخصيًّا لم أعد أعرف إن كان ما نحن فيه يستدعي الضحك أم يستدعي البكاء. كلما اكتشفتُ شيئًا أدركتُ أنَّ هناك أشياءً ناقصةً أو مجهولةً أو مسروقةً، وكأنَّ رأسي لا يحقُّ لها أن تصفوَ...

يقاطعني، قائلا:

- دعك من الكلام الكبير هذا، لماذا لا تنظر إلى نصف الكوب الممتلئ؟ ولا تسألني عن مكان الكوب لأنني لا أراه أصلا.

ويضحك ضحكة طويلة، ثم يواصل كلامه:

- ألا تقولون: "همٌّ يُضْحِكُ وهَمٌّ يُبْكِي"؟ سنموت إذا بكينا مع الهموم، وهذا ما تعلمتُه من الأفلام المصرية، كي لا تقول لي إنني أقول كلامًا كبيرًا، فلماذا لا نعيش اللحظة ونعمل مثل فهد الراجحي الذي لا تعرفه؟ لماذا لا ندخل في التجربة ونعيشها بكل تفاصيلها؟

أقول له:

- ولكن هذا البيت أهلي وتاريخي.

يقاطعني متسرِّعًا:

- لا أعرف إن كان عليّ أن أضحك أم أبكي، لكنني لا بد أن أكون صريحًا معك يا صديقي، نحن الآن في الطَّلِّ، كما تقولون هنا في مصر، ولكن بلا ندى ولا مطر. هناك دائمًا شيءٌ ناقصٌ. انظرْ، أنا لا أحبُّ تزويقَ الكلام. نحن الآن في

مصيبة كتلك المصيبة، وأظن أننا لو أردْنا حتَّى أنْ نرجعَ فلنْ نستطيعَ، لأنَّ الوضعَ كلَّه غريبٌ، ولم نرَ شيئًا طبيعيًّا منذ أن صرْنا معًا، فلنفترقْ على الأقل مؤقَّتًا، بأنْ تَدْخُلَ أنتَ في غرفة وأدخلَ أنا في الغرفة الأخرى، وربُّنا يغيِّرُ الأمورَ إذا كانت ليستْ منّا أو من غيرنا.

مع أنني لا أجد مبرِّرًا لكل هذا الكلام، أجد في كلامه شيئًا من المنطق، فأقول له:

- سأطلبك بالهاتف كي يكون رقمك أول القائمة، وأنت كذلك، ونتصل ببعضنا إذا ظهر لأي منا شيء غريب يستدعي وجودنا معًا.

آآآآآآآآآآآآه! آآآآآآآآآآآآه! لا توجد شبكة في هاتفي. فأضحك وأقول له:

- أرِني هاتفك.

يُخرج هاتفه، فيضحك ضحكة طويلة، ويقول:

- هل كانت الشبكة تسمعنا، فاختفتْ بمجرد أن أخرجْنا هواتفَنا؟

أقول له:

- هيا بنا نَعُدْ، يبدو أنَّ الوضعَ غير مُطَمْئِنٍ، فلا يمكننا أن نواصلَ بحثَنا وكلُّ شيءٍ فقدَ دورَه هكذا.

يستحسن الفكرة، ونستدير للوراء.

لو كنَّا قدْ سمعْنا صوتًا للباب، ربما قلنا إنَّ الرياحَ – حتى لو كانت غير موجودة – هي التي أغلقتْه، ولكنَّ البابَ لم يصدرْ صوتًا، وها هو منغلق

تمامًا، بلا نصف ضائع أو مفقود أم مُزَال، وكأننا نحن الأشباح، والباب يحمي مَن بالخارج منّا!!!

ينظر إليّ رياض نظرة مليئة بالرغب والحيرة، ومن المؤكد أنه يرى الآن في عيني نفس النظرة بكل رعبها وحيرتها، ولا نستطيع أن نقولَ شيئًا، ولا نعرف ماذا نفعل. فنصرخ سويًّا على أمل أن يسمعنا زاهر أو أمي، فلا نجد إلا صدى صوتينا متضخِّمًا في السقيفة لدرجة أنه يكاد يثقبُ آذانَنا من شدَّةِ الألمِ، فنكفُّ عن الصراخ ونجلس على الأرض في صمت ونحن نتبادل بأعيننا نظرات تحلُّ محلَّ الكلامِ.

لو كنتُ في أسطورة من الأساطير، لظننتُ نفسي الشاعر الهُمام وعندليب الدقي والعالَمَ السفلي أورفيوس أفندي سلطان، ابن الكلمة البائسة، ونظرتُ إلى السقيفة الآن على أنها سلالم الصعود من العالم السفلي، وعندما نظرتُ للوراء، اختفتْ حبيبتي واختفى البابُ. ولو واصلتُ سخريتي لرأيتُ بابي وهو يحمد الله لأنه نجا من سخافة قصائدي، كما في قصيدة للشاعرة كارول آن دَفِي، حتى لو كانت نجاته هي عودته إلى العالم السفلي بجحيمه وأشباحه.

لكنني لستُ في أسطورة الآن، وأظن أن خلافنا من قبل حول لأيٍّ مَنْ فينا ينتمي ذلك الذي كُنَّا نظنُّه حليمًا، أو على الأقل كنتُ أظنُّه أنا أنه حلم، لم يعدْ له وجودٌ أو قيمةٌ، فمن الواضح أننا في واقعٍ حتى لو كانت هناك عشراتُ الفجواتِ والحلقاتِ المفقودةِ والأنصافِ المجهولةِ التي تحاول أن تجعلنا ننظر

إلى هذا الواقع على أنه كابوس وسينجلي. وفي الوقت ذاته، أتفاجأ بكل هذه السوداوية في عيوني، ومن الواضح أن رياض لا يستوعب الكثير مما تقوله عيناي، فها هو يحرك رأسه وعينيه، مرَّةً ذات اليمين، ومرَّةً ذات اليسار، وكأنه يقول لي:

- ارْسُ على شَطٍّ.

فأبتسم له، وأحرّك كفِّي المفتوحة لأعلى لأوصل له حيرتي وجهلي:

- لا أعرف، ولا أستطيع أن أعرف.

وأحرِّكُ يدي مرة أخرى لأستفسرَ منه في هذه المَرَّةِ عمَّا يفكِّرُ فيه، فيفتح عينيه على مصراعيهما، إذا جاز هذا التعبير، لأستشف منهما دهشته من الموقف كله في الغالب. ثم يغمض عينًا ويفتح الأخرى بطريقة تجعل حاجبَه يتقوَّس أعلاهما، فلا أعرف إن كان هذا علامة على التعجب أم الاستغراب أم على عدم الفهم أم على الاستفسار عما قد يحدث لنا. فأغمض عيني المواجهة لعينه المفتوحة وأفتح عيني المواجهة لعينه المغلقة بالطريقة ذاتها التي يفتح بها عينه، لكي أوحي له بأننا سيارتان متقابلتان على طريق، وأريد أن أنبّهه إلى شيء ما، وأحس بأنني وإياه يمكننا أن نتصادم على هذا الطريق، وإن كنتُ لا أعرف معنى التصادم هنا، فنحن في ذات الموقف والورطة. فأصرخ بأعلى صوتي، ويتصاعد الصدى كما كان من قبل، فيضع رياض يدَه على فمي، ولكن الصدى لا يتراجع، وكأنه تبرمجَ على أن يسفك الدم من آذاننا، فيرفع رياض

يده من على فمي، ويبدأ في الصراخ هو الآخر. تزداد حدة الصدى، فنرفع درجة صراخنا، فترتفع درجة الصدى. نستمر في رفع صوتنا، فنكتشف أن الصدى لا يستطيع أن يجارينا، فبعد أن يتصاعد مع صراخنا، يبدأ في التوقف عند درجة معينة، ثم يبدأ في التراجع إلى أن يصير مجرد صرخة باهتة سرعان ما تتحوَّلُ إلى الصمت. أسلِّمُ على رياض بحرارةٍ ونحن نهنِّئُ أنفسنا على هذه النتيجة التي أراها مذهلة، بالرغم من أنني لا أدرك مغزاها. لكنها على أية حال نتيجة تغيِّرُ مجرى الأحداث في هذه السقيفة التي أحسُّ بأنها صارت قارَّةً بأكملها وليستْ مجرَّدَ مدخلٍ إلى البيت الذي صار غريبًا. يقول رياض فجأة:

- هيا بنا ننتقل إلى المستوى التالي؟

أنظر إليه باستغراب وأسأله:

- مستوى؟ هل نحن في لعبة؟

يتلعثم ويرتبك للحظات، ولكنه سرعان ما يبتسم ويقول:

- اعتبرْها لعبة يا صديقي. هل تظن أن ما نحن فيه حقيقي أو واقعي أو منطقي؟ بالرغم من أنني لا أحب أن أتكلم بهذه الطريقة ولم أكُنْ أظُنُّ يومًا أنني سأفهم ما أقوله الآن لو كان شخصٌ آخرُ قالَه لي من قبل، لا يوجد أي دليل على أننا موجودون في عالم حقيقي، أو أن عالمنا تحوَّل إلى عبث لا منطق له بالرغم من أنني متأكِّدٌ الآن تمامًا من أنني استنكرتُ كلامَكَ عن العبثِ من قبل، وأتذكَّرُ الآن كلامَكَ عن انتظارِ اللاشيء واستعجالِ اللاشيء. وما دُمْنا انتظرْنا

ولم نتوصَّلْ إلى شيءٍ أو لا شيء، فعلينا الآن أن ننتقلَ إلى المستوى التالي، وهو أن نبحث عن اللاشيء، فربما قادَنا إلى شيء نستطيع من خلاله أن نصل إلى أي حلقة من الحلقات المفقودة، وفي هذه الحالة يمكننا أن نتتبع هذه الحلقة لنصل إلى حلقات أخرى تُخْرِجُنا من هنا أو إلى هنا لنخرجَ من بحرٍ يُغْرِقُنا أو نخرجَ إلى بحر الحياة فعلا. ولا أريد أن أتكلم أكثر من ذلك الآن، لأنني لا أضمن القرار الذي قد أتَّخِذُه وأعصفُ على أساسِه بكلِّ شيءٍ. هل تستطيعُ أن تفسِّرَ لي لماذا تغنّى المطربُ محمد عبد الوهاب بمِثْلِ هذا الموقفِ في آخرِ أغنيةٍ له قبلَ وفاتِه؟!! أنظرُ لرياض طويلًا، وأحسُّ بأنني غبيٌّ وأَن نظرتَنا للأشخاصِ نظرةٌ مؤقّتَةٌ أو طارئةٌ، فلا يُمْكِنُ لأحدٍ أنْ يكوِّنَ فكرةً حقيقيَّةً أو متكاملةً عن أيِّ شخصٍ، لأنَّ كلَّ شخصٍ فينا في الغالبِ لا يبقى على حال، وإنما هو حالات متفاعلة على الدوام ولا يستطيع أحدٌ أن يتكهَّنَ بما قد ينتجُ عن هذا التفاعل، فحقيقةُ الشخصِ أو هُويَّتُه في حالة سيولةٍ دائمةٍ وتدفُّقٍ دائمٍ وصيرورةٍ متحوّلة من حالٍ لحالٍ، ولا يمكنك أن تتعامل مع شخصٍ على أساسِ الصورةِ التي رسمتَها له في ذهنك منذ سنةٍ على سبيل المثال، لأنَّ هذه السنة هي الإظلام بين مشهد وآخر في المسرحية، وحدثتْ فيها تطوُّراتٌ وتغيُّراتٌ أنتَ لم تشهدْها ولا تعرف عنها شيئًا. كنتُ أظنُّ أنَّ رياض شخصٌ سطحيٌّ أو تافِهٌ لا يتجاوزُ الإفِّيهاتِ والقلشَ والمزاحَ، ولا يستطيعُ أن يدخلَ في عمقِ أيِّ شيءٍ. ولكنني الآن أراه شخصًا آخرَ. يُخرجني من هذا التأمُّلِ قائلًا:

- ما رأيُكَ فيما قلتُه؟ ألا أصلحُ لأنْ أكونَ شخصيَّةً في روايةٍ أو مسرحيَّةٍ أو فيلم؟ كلامي أعجبَني كثيرًا، وأحسستُ بأنني مادةٌ خام لممثِّلٍ بارعٍ.

أضحكُ ضحكةً متقطِّعَةً، ولا أعرفُ ما يمكنني أن أقولَه له، فهل أقول له: "يا رجل، كنتَ أمهلتَني قليلا لأستمتعَ بفكرتي الجديدة عنك"؟ أم أقول له: "امشِ يا ولد الآن من أمامي، مَنْ يصاحب الـ... لا يخلو مِن الـ..."؟ أم أقول له: "مَنْ أنتَ؟ وما الذي جاء بك إلى هنا"؟ ولكنني أجد نفسي أقول له:

- التمثيل شيء جميل، يجعلك تعيش حياة عشرات الأشخاص غيرك وتحسُّ بهم وتتفهّم موقفهم، ويجعلك تحسُّ بالامتلاء والتنوُّعِ ورفاهية الخيارات، ودعْكَ من الممثلين الذين لا يستفيدون شيئًا من الأدوارِ والمواقفِ التي يشخِّصونها في أفلامِهم ومسرحيّاتِهم ومسلسلاتِهم، فعندما يتطلّبُ الواقعُ منهم أن يتّخذوا موقفًا مشابهًا لما كانوا يشخّصونه ينقلبون على أنفسهم وعلى الأرض ذاتها، وتجد المواقف التي يتخذونها في الواقع متعارضة تمامًا مع ما كانوا ينادون به وضد التغيير الذي كانوا يسعون لتحقيقه من خلال أعمالهم الفنية. لا أعرف إن كنتُ قد قلتُ لك من قبل إنني أيضا أعشق التمثيل أم لا! والمنطق يقول الآن إن علينا أن نتبادل شخصياتنا، فتدخل أنت الغرفة التي كنتُ من المُفْتَرَضِ أن أدخلها أنا، وأدخل أنا الغرفة التي كنتَ من المفترض أن تدخلها أنت. ولكننا لسنا في فيلم أو مسلسل أو قصة خيال علمي، وإنما في هذه الورطة التي وجدنا أنفسنا فيها، وعلينا أن نكون على مستوى الواقع....

يقاطعني قائلا:

- ها أنت تتحدث عن المستويات، فلماذا غضبتَ مني من قبل عندما اقترحتُ عليك أن ننتقل إلى المستوى التالي؟ هل أنا ابن البطة السوداء؟

أقول له بابتسامة:

- لا تغضبْ يا صديقي. أنا ابن البطة السوداء، مع أنني لا أحب البط، لا الأبيض منه ولا الأسود...

يضع يده على فمي عندما نسمع صوت بطة. ومع أن وجود بطة قد يبدو شيئًا طبيعيًّا في مكانٍ هكذا، فهو مكانٍ ريفيٍّ على أية حال، يُفْزِعُنا صوتُ البطَّةِ، لأنَّ كلَّ شيءٍ هنا الآن غير طبيعي، وعندما يظهر شيء طبيعي في مكان غير طبيعي، فلا بد أنه غير طبيعي. أرفعُ يدَه من على فمي وأقول بصوتٍ مرتفع وبابتسامة عريضة لا أعرف إن كانت هذه البطة تراها أم لا:

- انتهى عصر الاستعباد يا صديقي. لا فرق اليوم بين بطة بيضاء وبطة سوداء. كل البط سواء، كل البط سواسية...

يقاطعني ويقول على طريقة جورج أورويل في رواية مزرعة الحيوانات:

- ولكن بعض البط أكثر سواسية من بعضه الآخر.

ويضحك ضحكة طويلة تغطِّي على صوت البطة الذي يرتفع قليلا، ثم يعود إلى الانخفاض، وأتخيل مسار صوتها كما لو كانت تهجم علينا أو على أي كائن أمامها، وتتقدم بخطى واثقة وهي تعلي صوتَها المنذر. ولسبب ما، ربما يكون

علوَّ صوتينا أنا ورياض، أو ربما نظرةً وصوتًا أكثر إنذارًا أمامها من ذلك الكائن المتخيَّل، تبدأ في التراجع وكأنها استردَّتْ حقَّها أو دافعتْ عنه كما ينبغي لبطة سوداء تنتفضُ على كلِّ ما يؤرِّقُها ويدفعُها لأنْ تدافعَ عن وجودِها، فتتراجع راضيةً أو حتى ربما خائفةً. ومع ذلك، لا أستطيع أن أربط بيني أنا ورياض من جهة وبين ذلك الذي اعتدى على حق البطة السوداء، فنحن ذكرناها كمجرَّدِ تعبيرٍ لغويٍّ يُحِيلُ إلى قصَّةٍ تراثيَّةٍ أو شعبيَّةٍ لا أكثر، ولكن هذه الإشارة تجسدتْ واقعًا سمعناه بآذاننا منذ قليل. كما لا أدري العلاقة بين كلام رياض عن البط الأكثر سواسية من بعضه البعض وازدياد حدة صوت البطة! وما الذي جاء بالبطة وجاء بصوتها إلى هنا؟ فمن الواضح أنه لا توجد آثار حياة، مع أن النور مضاء، ونحن في وقت بعد العصر تقريبا! ولو كانت هذه البطة قادمة من عالم آخر أو حتى من أوهام آذاننا، فهل السخرية وسيلة لإخراس الأصوات القادمة منها أو معها؟ هل اللغةُ تُشَكِّلُ الواقعَ؟ فبمجرد أنْ ذكرْنا البطَّةَ سمعْنا صوتَها، وكأنَّ كلامَنا عنها أحضرَها إلى أرضِ واقعِنا هذا الذي لا ندري إن كان واقعًا حقيقيًّا أم أنه صورةٌ منه. وهل أسئلتي هذه وسيلةٌ للهروب من الواقع الذي ينتظرُنا في الغرفتين؟

أطرح هذا السؤال الأخير على رياض، فيضحك طويلًا، ويقول:

- مَن الذي يهرب مِن مَن؟ وهل ما نحن فيه الآن واقع؟ أم أننا وقعنا من قعر القُفَّة في بيتك هذا الذي لا أعرف كيف صار بيتًا يُشْبِهُ بيوتَ الأشباحِ

هكذا؟ يُفترض أننا رجال، أو على الأقل أنا رجل شرطة هههههههههههه ولا يمكن أن أهرب، فلا بدَّ أن أواجه هذا الواقعَ الذي فاقَ الواقعَ في هذه الوقعةِ التي وَقَعْنا فيها.

ويضحك، ويبدو أن ربطه بين الواقع والوقوع هو الذي دعاه لضحكته هذه، فأنظر إليه وأقول مبتسمًا:

- هو بيتي، وأنا أرجل منك. هيا بنا نعمل.

يقول لي:

- مع أنني لا أعرف إن كان البحث نوعًا من العمل أم لا، هيا بنا نعمل. هيَّا بنا نَعُدْ إلى المستوى الثاني بعد هذا التوقف الذي أدخلتَنا فيه.

أقول له ضاحكًا:

- ادخلْ إلى الغرفة التي على اليمين وأنا أدخل إلى الغرفة التي على اليسار، ونلتقي بعد الفاصل.

يضحك ويقول:

- ها أنت تتكلم عن وجودنا هنا كأنه برنامج تليفزيوني أو حلقة في مسلسل، فلا تغضبْ مني مرة أخرى إذا وصفتُه بأي شيء.

أقول له بجدِّيَّةٍ تامَّةٍ:

- أنا لا أغضب للوصف، ولكنني أغضب لأنني لا أفهم شيئا. هل يمكن أن يتحوَّلَ تاريخُك كله إلى عبث أو بيت أشباح أو أطلال ولا تعرف أي شيء عن التحول الذي أوصله إلى هذا الوضع؟

يقول لي بجدِّيَّةٍ تامَّةٍ أيضًا وكأنَّه يقلِّدُ نبرتي في الكلام:

- مع أنني مؤمن والأيام كلها أيام الله، سأقول على سبيل الـ...، على سبيل أي شيء إنها أيام سوداء.

فأدفعه من ظهره للأمام نحو الغرفة التي على اليمين قائلا:

- هيا، تلقَّ وعدَك من السواد بالداخل يا فيلسوف.

وأودعه وأنا أتحرك نحو الغرفة التي على اليسار.

الفصل التاسع

آآآآآآه! تبدو الغرفة كما لو لم يدخلها أحد منذ عقود من الزمن، فلا توجد فيها أية آثار لأي حياة. صمتٌ وذكرياتٌ ناطقةٌ، وأشياء تحاول أن تستنطقك وتصفّي ذهنَك.

لا أذكر أنني دخلتُ هذه الغرفة منذ أن مات أبي، فلقد عدتُ من السفر وقبَّلتُ يده، دون أن أخشى الموت، مع أنني كنتُ أرتعش عندما كنتُ أقبل أي أحد من موتى عائلتنا قبل الذهاب به إلى الجبّانة. قبّلتُ يَدَه وخرجْنا به مباشرةً لأنهم كانوا ينتظرون وصولي في أسرع وقت. وهي الغرفة التي مات فيها جدّي أيضًا. مَرَّتْ أكثرُ من ثلاثين سنة، وها أنا أرى جدي أمامي، كأنني رأيتُه بالأمس. وأرى أبي أيضًا، ولا أعرف كيف أتخَيَّلُ جيلينِ كاملينِ متجاورينِ في موتِهما أمامي هكذا! هل أودِّعُهما وأخرجُ؟ أم أترك نفسي لهذا المغناطيس الهائل الذي يجذبني إلى هذه الغرفة؟ بل هما ثلاثة أجيال، فأخي الأكبر كان يستعمل هذه الغرفة مكتبًا أيضا قبل مرض جدي وقبل أن يرحل هو إلى المدينة ليواصل دراسته، وكان يشرح لي فيها الدروس التي قد تكون صعبة عليّ في اللغة.

سامحْني يا رياض، أعطيتُك غرفة الفئران، مع أنها صارت بعد ذلك مَخْزَنًا، ولكنَّ كلَّ ما أتذكَّرُه الآن ويتجسَّدُ أمامَ عينِ خيالي هي تلك الفئران التي لا

حصر لها التي كانت تهرب إلى جحورها بمجرد أن يدخل أي أحد بمصباح غاز في يديه قبل وصول الكهرباء للبيت. أربعون سنة كأنها لا شيء، ومقابلها هنا أربعون سنة من حكايات جدي التي تتجسَّدُ أمامي الآن أيضًا، وكأنَّه ما زالَ حيًّا، وكأنني ما زلتُ طفلًا صغيرًا لم ينفتحْ على الطرقات والسَّفَر!

بماذا أبدأ؟ تتداخل المشاهِدُ أمامي كأنَّ الأزمنةَ كلها ما هي إلا بحر واحد، أو ما هي إلا ذلك البرزخ المنساب خلف جدار الزمن وبمحاذاته وطولِه! أكادُ أرى كلَّ شيءٍ، وأكادُ أكتشفُ البذورَ المسمومةَ التي لا يمكنُها أن تُنْبِتَ نباتًا صالحًا للحياة. نَعَمْ، الحيُّ أبقى من الميّت، والأحدثُ موتًا أبقى من الأقدمِ موتًا. سلام عليك يا أبي. هل السفر إلا خطوات؟ وهل الخطوات إلا سفر وانتقال؟ عبور ومعابر ووصول ولا وصول! وها أنا بين يديك. هل أستحضر شيئًا حدث أمام عينيّ؟ أم أنني لا أستطيعُ أنْ أميِّزَ بين اليقظة والأحلام؟ وها أنت كما أنت، لا موت يؤثر فيك، ولا حياة صارت تؤثر فينا، كأن هذه الأرض تخاصم الحياة! وما علاقة البحر الأحمر بكل هذا؟ ولماذا يلحُّ عليّ تعبير "احمرار الطاهرة" هكذا كأنه الخلاصة والرؤيا والكابوس؟!!

*****

يبدو أننا ركَّابٌ في ميكروباص ونسير على الطريق نحو البلدة داخلين إليها. يقول ابنُ جارٍ لنا لا أعرفُ اسمَه ولا أذكرُ اسمَ أبيه، ولكنني أتبيَّنُ درجةَ القرابة بينهما من ملامحِه، وأعرف قريبًا لهما اسمه خلف كان قد قَتَلَ أحدَ أقربائه منذ سنوات بعيدة، ولذلك سأمّي هذا الابن "خلف". يقول خلف بنبرةٍ عاديَّةٍ جدًّا كلامًا سيِّئًا عن الحكومة، وهو يولي وجهه نحو خارج السيارة ولا يبدو عليه أي انفعال. أنظر إليه لأحاول أن أرى أي ملمح منه يدلّني على مغزى كلامه، ولكنني لا أتذكر إلا موقفًا غامضًا كان قد حدث منذ دقائق على الكوبري فوق الترعة البحرية عندما بدأنا في الدخول على الطريق الحالي، ويبدو أن هذا الموقف هو السبب في قول هذا الكلام. يقول أبي الجالس على الكرسي بجواري:

- انظروا إلى البحر الأحمر.

أفهم من كلامه أنه يريدنا أن نقارن بين الوضع الحالي وحالة البحر الأحمر المشهور بنقاء مائه وبِشُعَبِه المرجانية، وكأنَّ أبي يلفتُ انتباهَنا إلى الابتعاد عن الطبيعة مع أننا الآن في وسط قريتنا. أقول:

- لو كانت الحكومة تريد أن تغيِّرَ شيئًا لغيّرتْه، ولكنها تريدُنا أن ننكفئ على لقمةِ عيشنا وأمراضِنا ومشاكلِنا حتى لا نرفعَ رؤوسَنا.

أحسُّ بأن أخي الأكبر الذي يجلس على الكرسي الذي وراء خلف ينظر إليّ ويبتسم. أنظر إليه. يضع يده على رأسه ويبتسم ابتسامة أحسُّ بأنها مُرَّةٌ مع أنَّه يحاولُ أن يجعلَها صافيةً. أسألُه:

- هل بك شيء؟

يقول لي:

- لا شيء. كلامك منطقيّ.

أجد نفسي أربّت على يد أبي، ويتضخّم الموقف الغامض في رأسي مع أنني لا أذكر عنه أو منه أي شيء، فأنظر إلى خلف بجواري وأسأله:

- ماذا كنتَ تقول؟ ما الذي حدث هناك؟

يرتبك، ولكن وجهه سرعان ما يعود إلى حياده. يشدُّ أبي على يدي كأنّه يذكّرني بشيء لا أفهمه. يقول خلف:

- سأنزل هنا.

ولكنه لا ينزل من السيارة، وينزل بعد مسافة في وسط الطريق دون أن يقول لنا شيئًا أو يلقي علينا السلامَ.

ينظر إليّ أبي ويقول لي:

- يا ولدي، ألم أقل لك: لا تُجَارِ عيالَ المساليب؟!

أقول له ضاحكًا:

- يا أبي، العيال كبروا، والدنيا تغيّرتْ.

يبتسم ابتسامة صغيرة ويقول لي:

- حسابُك عندما نصل إلى بيتِنا.

أتأسف له ونحن ننزل من الميكروباص في الموقف. أجد خلف كأنه قد سبقَنا ولا أدري كيف! ولكنه لا يدخل من باب بيتهم، وإنما يدخل من باب دُكَّانِهم المجاور للبيت. أهمُّ أن أدخل وراءه، ولكنني أتراجع في اللحظة الأخيرة وأمسك بالباب من الخارج كأنني أحاول أن أغلقه بإحكام. ويبدو أنني أجد سخافة في محاولتي إغلاق باب الدكّان، ولا أدري إن كانت هذه السخافة راجعةً إلى أن خلف في دكانه وفي بيته الآن أم كانت راجعةً إلى أنني أُغْلِقُ باب الدكان في وجه الزبائن الذين قد يأتون لشراء شيء يحتاجونه! أتركُ البابَ. وكي لا أُحْبِطَ الزبائنَ أفكِّرُ في أنْ أفتحَه، ولكنني عندما أضغطُ عليه أجدُ أنَّه مغلقٌ بإحكامٍ من الداخل وأسمع صوتَ خلف من الداخل يقول بنبرةٍ عاليةٍ وساخرةٍ:

- غدا ستأتي الحكومة وتقبض عليكم جميعًا يا أولاد الباشوات!

أضحكُ ضحكةً طويلةً وعاليةً وأتأكد من أنها وصلت إلى خلف، مع أنني لا أقصد من ورائها إلا أننا لسنا باشوات وأننا سقطنا حتى من الطبقة الوسطى الآن بعد كل هذه التخبطات الاقتصادية.

أجري نحو أبي، وأحمل مِنْ عليه الحقيبةَ التي يحملُها. يضعُ يدَه في يدي ويتكئ عليّ ونسير سويًّا. أجده يحاول أن يبلع ريقه ولا يستطيع. يُخرج من جيبه دواءً

ويبتلع حبَّةً منه ويشير بيده إلى مجرى ماء الريِّ بجوارنا. أميل نحو المجرى وأمسك بإناء فخّاري من بين عدة أواني يبدو أن صاحبتَها غسلتْها في المجرى وتركتْها على جانبه لتجفّ. هناك أوراق أشجار جافة صفراء وحمراء تغطي سطح الماء، وكأنَّ الماءَ شَحَّ وشاخَ وما عادَ يجري كما كان يجري من قبل. ماء ضعيف لا يمتلك قوَّة تمكّنه من أن يجرف كلَّ الأوراقِ الصفراء والحمراء التي تملأه بالعفن والحُمرةِ. وأجد الكثير من الأوراقِ يدخل في الإناء الفخاري الذي ملأتُه بالماء، فأسكبُه في المجرى وأُبْعِدُ بيدي الأوراقَ من على الموضع الذي أملأ منه، ولكن بعض الأوراق مازالت موجودة في الماء، فيقول أبي بصعوبة:

- إنه البحر الأحمر يا ولدي. لعنةُ اللهِ على فَنْجَرِيَّةِ البُقِّ وعلى طاقِّي الحَنَكِ وعلى العاجزين في يومٍ واحد، يا قادر يا كريم. هاتِ الإناءَ.

يحرِّكُ أبي الإناءَ يمينًا ويسارًا إلى أن تتجمَّعَ الأوراقُ في جهةٍ من الإناء ويشرب هو من الجهة الأخرى ليبتلع حبة الدواء. يعطيني الإناء وينظر للوراء ويقول:

- أين أخوك؟

أنظر للوراء، ولا أرى أحدًا، فيقول أبي:

- أجلسْني يا ولدي على حافة الطريق هنا تحت تلك الشجرة.

أسأله:

- هل تعبتَ يا أبي؟

يقول لي:

- هو بحر أحمر. لم أتعب بعد. أجلسْني واذهبْ وهات أخاك.

لا أدري إن كان يقصد بالبحرِ الأحمرِ البحرَ الأحمرَ الذي نعرفه أم مجرى الماء الذي تغطيه أوراق حمراء بالإضافة إلى الأوراق الصفراء أم إلى أخي، خاصة وأن كلامه يدور حول أخي الأكبر هنا. فأُجْلِسه وأنا أضع الحقيبة تحته كي يرتاح في جلسته إلى أن أعود بأخي.

أجد أخي يجلس على حافة مجرى الماء وهو يدفن وجهه في كفَّيْه. أربّتُ على كتفه، فيرفع وجهه وأجد نظرته تجمع ما بين الغضب والاحتقان أو البكاء الخفيّ، فأمسك بيديه لينهض وأنا أربّتُ عليه وأحضنه. يقول لي:

- لماذا تركتماني؟ ألم أقل لك إن رأسي تؤلمني؟

أصمتُ ولا أردُّ عليه، فكلُّ ما أتذكّره وأكاد أكون متأكِّدًا منه أنه أشار لرأسه وفسَّرَ إشارتَه بأنَّ كلامي الذي قلتُه آنذاك منطقيٌّ، فأقول له:

- سؤالاك منطقيّان يا أخي. أنا آسف. جريتُ وراء أبي كي أسنده على الطريق.

يسألني بقلق:

- كيف حاله الآن؟ كلامه عن البحر الأحمر مخيف، كما أنني أشعر بأن رأسي حمراء.

أسأله ضاحكًا:

- ما موضوع الحُمْرَة اليوم؟ أحسُّ بأن الحمرة فقدت معناها الشعبي وصار لها معنى جديد. يضحك ويقول:

- لا شيء. كلام منطقيّ. هكذا سُنَّة الحياة.

أقول له:

- تأخّرنا على أبينا. هيا بنا.

فيتحامل على نفسه ويتكئ عليّ ونحن نسير على الطريق. أحدثه عن أوراق الأشجار الحمراء التي تغطي سطح الماء، فيبدو عليه الغضب ويقول:

- حتى الماء الارتوازي الذي يخرج من باطن الأرض أحمر! هل هناك حَمَارٌ أكثر من ذلك؟

أحسُّ بأنني لا بد أن أتعلّم لغة الحُمْرَة أو الحَمَار، ولكنني لا أسأل أخي عن شيء، فها نحن وصلنا إلى أبينا، وها هو أبي يتغنّى بمقطع من أغنية قديمة أو موّال قديم. أمدُّ له يدي، فيمسك بها وينهض، وأعلّق الحقيبة بكتفي. يتكئ أبي على كتفي الأيمن ويتكئ أخي على كتفي الأيسر ونهمُّ بأن نحيد جهة الطريق الموصل إلى بيتنا، ولكنّ أبي يتوقّف ويقول لنا:

- يمكِنُنَا أنْ نؤخِّرَ الذهابَ إلى البيتِ قليلًا. أريدُ أنْ أتمشَّى في الغيطِ.

أستغربُ من كلامه هذا لسببين. السبب الأول أن غيطنا مازال أمامنا بجوار بيتنا ولم نصل إليه بعد، وبالتالي لا داعي للتوقف هنا. والسبب الثاني أن أبي

مُتْعَبٌ ومن الواضح أن المرض اشتدَّ عليه، ويحتاج إلى الراحة، وبالتالي لا بد أن نذهب إلى بيتنا كي يستريح. ولكنه يستدير للوراء ويشير إلى الغيط الذي بعناه منذ سنتين تقريبًا لأحد أقرباء خلف، فأقول لأبي وأنا أنظر إلى أخي ليشاركني الرأي:

- هو ليس غيطنا الآن يا أبي.

يقول لي:

- هل تظن أنني خرفتُ يا ولد؟ أعرف أنه لم يعد غيطنا.

يقول أخي:

- عليك نورٌ يا أبي. إذا تمشّينا في ذلك الغيط قد يقول لنا خليفةٌ صاحبُه أو أحدُ أبنائه شيئًا.

ينفجرُ أبي غاضبًا:

- من ذلك الذي يستطيع أن يقول لنا شيئًا؟ أليستِ الأرضُ لها حقّ الشُّفْعَة يا ولدي؟ ألا تحنُّ الأرضُ لصاحبِها القديم؟ وصاحبها القديم يحنُّ لها الآن أيضا. هيّا خُذاني إلى هناك، وخليفة الآن لم يعد من عيال المساليب ولن يقول شيئًا. فهو تغَيَّرَ وأصلحَ نفسَه. لا يبقى أحدٌ على حالٍ يا ولدي. والمَثَلُ يقولُ: هل تعرفُ فلانًا؟ نعم. هل عاشرْتَه في مواقف كثيرة؟ نعم. ربما تعرفُه. هل عاشرتَه فقي كلِّ المواقف؟ لا. إذن أنت لا تعرف عنه إلا القليل. لا تستغربوا. نعم أنا الذي أقول ذلك الآن. عيال المساليب لا يظلُّون عيال مساليب للأبد يا

أولادي. وأولاد الأصول قد يتحوّلون إلى عيال مساليب أيضا. ألم تقلْ أم كلثوم: "أنت فين والحب فين؟ ظالمه ليه دايمًا معاك"؟ اللهم أجرْنا من البحرِ الأحمرِ.

أحسُّ بقلق لا أعرف مصدره، ولكن حنين الشخص إلى مكان ما ليس علامة خير، كما أن كلامَه الفائق للعادة فجأةً لا يبشِّرُ بخير. ومع ذلك أمسكُ بيدِ أبي من جانبٍ ويمسكُ به أخي الأكبرُ من جانبٍ آخرَ وهو يقول:

- قادمٌ إليكِ يا طاهرة.

فيبتسم أبي ويكرِّرُ كلامَ أخي:

- قادمٌ إليكِ يا طاهرة...

الفصل العاشر

أسمعُ صوتَ جدّي يقول:

قادمٌ إليك يا طاهرة.

ولا أعرف مَن تلك الطاهرة التي يكلّمُها! فهو كان قد ماتَ عندما قال أخي الأكبر وأبي هذه العبارة، ولا أظن أنه كانت هناك مشكلةٌ في الأرضِ أو في الماءِ عندما كان جدّي حيًّا، مع أنني كنتُ ما زلتُ طفلًا ساعتَها. لم أعد أؤمن بالطُّهْرِ الكاملِ ولا بالدَّنَسِ الكاملِ، فما تعلمتُه طوال تلك السنوات أن كل شيء لا معنى له خارج السياق، وأن ما يمكن أن تقوله في سياقٍ معيَّنٍ قد يكتسبُ معنى مختلفًا تمامًا في سياقٍ آخرَ. لماذا تلحُّ عليّ الآن كلماتُ شخصيَّةٍ في حكايةٍ من الحكايات التي كان جدي يحكيها لنا:

- أنا أسند الجبل بظَهْرِي.

هل كانت على لسان ثعلب أم ذئب أم شخص ما؟ ولماذا لا يعمل ذلك الشخص أو الكائن أو الحيوان مثل الآخرين عندما يطالبونه بالعمل معهم في الأرض التي تخصُّمُ جميعًا؟ هل يمكن أن يقع الجبل عليهم ولذلك يضطلع هو بدور الحامي الذي يحميهم من سقوط الجبل؟ ولماذا كانوا يصدقونه على الدوام؟ ولماذا كنا نحن كأطفال عندما نستمع إلى هذه الحكاية من جدي نستمتع بها مع أنني أدركُ الآن أنها حكاية مروية للكبار؟ حكاية تطفح بالمرارة

والسخرية والمحاكاة الساخرة. ولماذا تقترن الآن أمامي بحكاية "خيبة" التي كان جدي يحكيها أيضا؟ ذلك الرجل الذي اسمه خيبة وتجهّز له زوجته كل صباح الأقراص أو الفطير المشلتت، لكي يأكلَ جيِّدًا ويكون صالحًا للعمل في الحقل ولحصادِ محصول القمح في الغالب، ويأكل حتى يشبع، ثم يربط وسطه بالحبل كأنه يعبِّرُ عن همَّتِه وعزيمتِه، ويمسكُ المَنْجَلَ بيدِه ويتَّجِهُ إلى الحقل. وعندما تذهبُ زوجتُه إليه بالغداء في وقتَ الظُّهْرِ تجدُه نائمًا تحت شجرةٍ ولم يحصدْ شيئًا. هل قال هو أيضا لزوجته عند تعبيرها عن استغرابها:

- أنا أسند النخلة بظهري.

هل قال لها ذلك؟ ولماذا كلُّ مَن لا يعمل شيئًا أو لا يقوم بواجبه يقول إنه يسند شيئًا بظهرِه ولولاه لسقطَ المعبدُ فوق رؤوسِ مَنْ فيه؟

أدركُ الآن سببًا آخر لعدم امتلاء الزير بالماء في تلك الحكاية التي كان جدي أيضًا يرويها لنا في هذه الغرفة المزدحمة جدًّا بي الآن، فلا أظن أنها كانت مزدحمة قبل أن أدخلها، فيبدو أن الذكريات تظل نائمة إلى أن توقظها عينٌ تراها وقلبٌ يسترجعها وعقلٌ حائرٌ بينهما وبين الخيوط الكثيرة التي تشده إلى أماكن شتّى.

آنا آسف يا جدي لأنني لا أستطيع أن أتذكر كلَّ تفاصيل حكايتك، أنا آسف جدًّا. أربعون سنة ليست فترة قصيرة، ولا تمكّنني من أن ألمَّ الآن بكل التفاصيل، وأستغرب كيف يدّعي أحدٌ أنه يستحضر تفاصيلَ حدثتْ منذ أكثر

من مائة سنةٍ، نعم، مائة سنة، وليست مائة عامٍ، سنون عجاف، سنون دامية، سنون دموية، سنون تخرج إلى حافة الهاوية وتقول:

- الولدُ لا أبَ له.

وما علاقتي أنا بالأب؟ ما علاقتي بالابن؟ ما علاقتي بالأم؟ إذا كنتُ لا أستطيع أن أتيقّن من حاضري، مما يحدث أمامي، فكيف تطالبني بأن أثق بذاكرة أحد، أي أحدٍ؟!!

أدركَ ذلك الشاب أنَّ كلَّ دلوِ ماءٍ كان يسكبه في ذلك الزير ليمتلئ كان حلقةً مفقودةً، كان حلقة في سلسلة طويلة لا سند لها. اعذرني يا جدي؛ فربما أضطر لأن أملأ فجوات حكايتك وحلقاتِها المفقودة بتفاصيل من عندي، فلا بد أن يكون الكلام له معنى، ولا يمكنني أن أظل حائرًا وتائهًا ومشوَّشًا وضائعًا هكذا. واعذرني، لأنني سأتكلم عن ذلك الشباب بضمير الغائب وفي الزمن الماضي، فربما انعكس التمييز بين الضمائر وبين الأزمنة على وجودي هنا في جهينة التي كان عندها الخبر اليقين، واتضحتْ لي الصورة وابصرتُ بعض الحلقات المفقودة، فكل ما أتمناه الآن أن أخرج من هنا وأنا أفهم شيئًا ولا أظل في هذا العماء. فلنبدأ من البداية:

قال الشاب للرجل الذي يقول إنه يمتلك المزرعة الكبيرة:

- زوّجْني بنتك يا عم.

-

ابتسم الرجل ابتسامةً لم يفهمْ الشَّابُّ معناها، وقال:

- لا مشكلة يا ولد. نحن نشجِّعُ الشباب على الحياة.

قال الشاب:

- بارك الله فيك يا عمّي. هل تسمح لي بأن أناديك بعمّي؟

اتسعتْ ابتسامة الرجل وصمتَ قليلًا وهو ينظر يمينًا ويسارًا، كأنه يستطلعُ إنْ كان أحدٌ يراهما أم لا، ثم قال:

- لا مشكلة يا ولد. يمكنك أن تناديني بعمك أو حتى بأبيك، فأنا أبو الجميع، والأب والدٌ وراعٍ وحامٍ.

قال الشاب:

- هكذا كان العَشَم يا عمي.

نظر الرجل إلى الشاب نظرةً غاضبةً وقال له:

- ألم أقل لك إنك يمكنك أن تناديني بأبيك؟! كيف أستطيع أن أثق فيك وأنتَ تَتَنَصَّلُ من أوَّلِ مسؤوليَّةٍ أكلِّفُكَ بها؟

قال الشاب:

- لا سمحَ الله يا عمّي. يسعدني أن تثق بي، فثقتك بشارة خير. سلمتْ أياديك. أنا تحت أمرك يا... يا أبي.

ابتسم الرجلُ ابتسامةً عريضةً كابتسامتِه السابقةِ وقال:

- هكذا أنتَ ابنٌ مطيعٌ. وأنا قبلتُ أن أزوِّجُك ابنتي.

قال الشاب:

- ألا تستطلع رأيها يا أبي؟

قال الرجل:

- رأيي سائر على جميع أهلي. وخَلِّ كلمة "أبي" بيني وبينك، فلو سمعتْكَ ابنتي تقول لي إنني أبوك ستنفرُ من الزواج بأخيها.

قال الشاب:

- ولكنني لستُ أخاها، كما تعرف يا عمّي.

نظر الرجل إليه بغضب وقال:

- لا تقل لي إنني عمك، فهي توحي للناس بأنني زوج أمِّكَ.

قال الشاب في حيرة:

- بماذا أناديك إذن؟

ابتسم الرجل وقال:

- نادِني بالعم بشارة، أو بالأب بشارة. ألا ترى أنني بشَّرْتُكَ بالزواج بابنتي؟ أم أنك رأيتَ شيئًا آخر؟

ارتبك الشاب عندما رأى النظرة الغامضة في عينيّ الرجل وقال:

- نعم بشَّرْتَني أيها العم بشارة. آسف، بشّرتني أيها الأب بشارة.

قال الرجل:

- لا داعي للأسف يا ولد. يجوزُ الرأيان، فما العم بشارة والأب بشارة إلا وجهان لحقيقة واحدة.

ابتسم الشاب وقال:

- شكرًا على البشارةِ، شكرًا جزيلًا.

قال الرجل بنبرة عميقة ومتأملة:

- لا تشكرْني إلا بعدَ أن تبرهِنَ على أنَّ ثقتي بكَ في محلِّها.

قال الشابُّ بحماسٍ:

- وأنا على استعداد لأن أبذل كل ما في وسعي لكي أبرهن لك أيها العم بشارة على أن ثقتك بي في محلها.

قال الرجل بابتسامة مواربة:

- أنا سعيد بحماس الشباب هذا. هذا هو البرهان: عليك أن تملأ الزير الذي تحت الشجرة التي على يمين القصر بالماء.

قال الشاب:

- وماذا بعد أن أملأه بالماء؟

ابتسم الرجل وقال:

- لا شيء. كل مهمتك تتمثَّلُ في أن تملأ الزير بالماء. ولكن البئر التي ستملأ منها الزير هي البئر التي في أرضك.

نظر الشاب للوراء نحو أرضه، فلم يستطع أن يراها، لكنه تخيَّلَ عروسَه قادمةً من هناك، فابتسم وقال للرجل:

- لا مشكلة أيها العم بشارة، لا مشكلة. إذا لم يجدّ الشخصُ في شبابه، لا يستحق أن يكون له مستقبل وافر.

قال الرجل بابتسامةٍ عريضةٍ جدًّا:

- وافرٌ على وافرٍ يصنعون وفرةً، أو قد لا يصنعون. لا يهمُّني ذلك الآن. كلُّ ما يهمُّني أن تقدِّمَ لي مهرَ ابنتي الذي كلفتُك به.

قال الشاب:

- كلُّه يهون في سبيل عيون الشباب يا أيها العم بشارة.

قال الرجل باستغراب:

- من المفترض أنني أنا الذي أقول هذه العبارة، فهي لا تناسبك يا ولد.

قال الشاب بتواضع:

- أقصد أن كل شيء يهون في سبيل أن يلتقي شبابي بشباب ابنتك لنصنع شبابًا متواصلًا.

قال الرجل:

- تأدَّبْ يا ولد. البالغون أمثالي هم الذين يصنعون الشباب المتواصل. فلولاي ما كان هناك شباب. ألم ترَ بنفسك كيف أن العم بشارة فتحَ أبواب الأمل أمام الشباب؟

ارتبك الشاب ونظر للوراء، كما من قبل، وعندما لم يرَ أرضه، نظر للأمام وقال وهو يخفي ارتباكه:

- نعم، رأيتُ، رأيتُ العم بشارة وهو يفتح...

وتلعثم ولم يستطع أن يكمل جملته، فقال له الرجل:

- ماذا بك يا ولد؟ هل يتلعثم أحد أمام العم بشارة؟

قال الشاب وهو يحاول أن يهدّئ نفسه أو يتمالك أعصابه:

- أنا آسف أيها العم بشارة. سأعود في الصباح بأوَّلِ دلوِ ماءٍ لأبدأ في ملء الزير.

ابتسمَ الرجلُ وقال له:

- وأنا في انتظار امتلاء الزير بمائك. في ستين سلامة.

في الطريق، كان الشاب سلامة ينظر إلى جدول الماء الذي يمتد بطول الأرض التي يضع يدَه عليها ذلك الذي أطلق على نفسه اسم العم بشارة والأب بشارة، وربما أطلق على نفسه أسماء أخرى. وأخذ سلامة يتأمل جدولَ الماء المنساب برقة وضحالة في الوقت ذاته، أي كان ينساب ولكنه كان قليلا في الجدول. ومد سلامه بصره نحو أرضه فلم يستطع أن يبصرَها، فضحكَ ضحكةً أحسَّ بصداها يتردَّدُ في الخلاء. ولم يهتم للصدى الذي وضعَ كلمةً في نهايةِ الضحكةِ المتردِّدَةِ في الأرجاء: "مجنون". نظر للوراء نحو الشجرة التي من المفترض أن الزير تحتها أو يبعد عنها قليلا، وقال لنفسه:

- ها هو مجرى الماء، وها هو الزير هناك، هل العم بشارة مجنون؟ أم أنني أنا المجنون لأنني وافقتُ على شَرْطٍ تافه هكذا، لأنني بإمكاني أن أملأ الزير من مجرى الماء في دقيقة أو دقائق معدودة على أقصى تقدير؟

هز رأسه وأخذ يدندن بكلمات أغنية لم يكن يظن أنه يتذكر كلماتها بكل هذه الدقة.

*****

هل كنتُ أستوعبُ كلَّ هذا عندما كان جدي يحكي لنا القصة؟ وهل يمكن للإنسان أن يتذكّر تفاصيل شيء لا يستوعبه هكذا؟ لا أظن أنني كنتُ أفهم مغزى كل هذه التفاصيل آنذاك. ولو سألني أحد عن هذه الحكاية منذ سنوات ما كنت سأتذكر إلا أقل القليل من هذه التفاصيل، باستثناء باقي الحكاية الذي لم أقصه بعد، أو بالأحرى لم يعاود صوت جدي التجسد أمامي في الغرفة الآن بكل هذه التفاصيل. ولماذا أجدُ الآن رابطًا بين الكثير من حكايات جدي؟ هل كان يحكي لنا عن عمدٍ حكاياتٍ أراها الآن موجَّهَةً للكبار؟ أم أنَّ الحكايات للكبار والصغار مثل ديوان "قصائد للكبار والصغار" أو "للصغار والكبار" التي كتبها الشاعر نصّار عبد الله؟ هل كان جدي يتعمَّدُ أن يحكي لنا هذه الحكايات بالذَّاتِ في طفولتنا لكي تلتصقَ بخيالنا وأفكارنا وذكرياتنا وتطلعاتنا ونعاود استحضارها عندما نحتاجها أو

تحتاجنا؟ ولما تتجسَّدُ كاملةً الآن عندما عدتُ إلى هذا المكان وبدأتُ في البحثِ؟ ولماذا عدتُ إلى هذا المكان في هذا الوقت بالذات؟ وكيف عدتُ؟ رياض ذاته قال إنه لا يعرف كيف جاء إلى هنا؟ وبالتالي لا يعرف كيف جئنا، أنا وهو، إلى هنا، لأنه أكَّدَ على أننا كنَّا معًا في الجيزة قبل أن نظهرَ فجأةً هنا.

يا تُرى، كيف حال رياض الآن؟ وما الذي يراه وهو ليس من أهل هذا المكان؟ هل ستتجسد ذكرياته هو أيضا في هذا المكان وهي لم تَنْبُتْ فيه؟ أمْ أنَّ الطعامَ الذي أكلَه في شرقطون معي وكنتُ قد أحضرتُه من عند أمي هنا سيلعب دورًا ويقوم بدور حلقة الوصل بين ذكرياته وبين هذا المكان؟ ولماذا دفعتُه أنا لأن يستكشف غرفة الفئران التي كانت غرفة مخزن للمؤنة والعِدد والآلات؟ هل لأنني كنتُ أحسُّ بأن شرقطون بها فئرانٌ تتلصَّصُ على رأسي؟ أم لآنَّ مخزنَ المؤونةِ له علاقة بالطعام الذي أكلَه معي؟ أم لأن هذه الغرفة التي أجلس فيها الآن تحتوي على الكثير من ذكرياتي؟

يبدو الأمر معقَّدًا. ولكن رؤيتي تصفو الآن، على الأقل فيما يتعلق بحكاية الشاب سلامة والعم بشارة، وهذه بشارة خير، لا، لن أستخدم هذا التعبير، هذا الصفاء فأل حسن، وها هو يعيدني إلى نفسي ولو قليلًا، مع أنني لا أرى أي أثرٍ لإخوتي، ولم أستطع حتى الآن أن أفهم مغزى كلام أمي عن أن الباب المفتوح يدل على أنه لا يوجد أحد بالبيت. لن أُرْهِقَ نفسي بأسئلةٍ أخرى الآن، فها هي حكاية الشاب سلامة تتجسد أمامي من جديد، وأرى سلامة ذاته

وكأنني موجود داخل رأسه، ولا يمكنني أن أتكلم عنه بالزمن الماضي، ولا أعرف لماذا؟ هل لأنني داخل رأسه بالفعل؟ أم لأنه يخرج من حكاية جدي ويتجسد أمامي الآن وأسمعه وهو يفكّر بصوت مرتفع. لا أَذْكُرُ أنَّ هناك زيرًا بالقُرْبِ من البيتِ هنا، فأذكر أننا كانت لدينا طرمبة ماء، وبعد أن صار الماء القريب من مستوى سطح الأرض متغيِّرَ الطعم، اضطررنا إلى أن ندقَّ ماسورة أطول لتصل إلى مستوى عميق داخل الأرض ويَخرج الماء من الموتور عذبًا ولذيذًا.

*****

لماذا لا يريد هذا الزير أن يمتلئ؟ ها أنا منذ شهور أحمل الماء في القِربة من أرضي إلى هذا الزير ولا تبقى فيه قطرة ماءٍ واحدة. ولماذا يضع العم بشارة الزير تحت هذه الشجرة الغريبة التي تمتد أغصانُها بكثافةٍ في كلِّ الاتجاهاتِ وتتدلَّى في النهاية لأسفل بحيث لا يدخُلُ النورُ إلى ما يشبه البيت الذي تحيط به أغصان الشجرة ولا ينفتح منه إلا جزء صغير على جانب الطريق، كأنه باب يكفي لدخول شخص واحد؟ هل هذا الزير بئرٌ جافٌّ أو جافَّةٌ؟ وهل هو زواجٌ ذلك الي يجعلني ذاهبًا وقادمًا طوال شهور ما بين الزير وبئري الذي هناك وكأنني في كابوس لا يريد أن ينتهي؟ قلتُ للعم بشارة:

- يبدو أن هذه الشجرة التي من المفترض أنها مظَلَّةٌ للزِّيرِ صارتْ بيتَ أشباحٍ تشربُ الماءَ بمجرد أن أسكبَه في البئر.

قال لي:

- لا تتكلم عنها هكذا. احفظْ لسانك، فهي شجرة مباركة، وأنت عزيز لديّ، ولا أقبل أن يصيبَك الأذى، فلا تتكلم عن هذه الشجرة المباركة هكذا. كل دلو ماء تسكبه في الزير يعطيك بَرَكةً، ومن يدري؟ فربما تصير أنت ذاتك مبارَكًا في يوم من الأيام، مثل هذه الشجرة بالضبط! أنا شخصيًّا لم أنلْ بَرَكَةَ هذه الشجرةِ وهذه الأرضِ إلا بعد سنواتٍ، ولم يكنْ في بيتي رغيفانِ من الخبز. كان رغيفًا أو نصفَ رغيفٍ.

قلتُ له:

- ولكنني أيها العم بشارة لا أريد هذه البَرَكَةَ التي تكاد تقضي على آخر أنفاسي!

قال لي:

- أين الصبر؟ اصبرْ، فبصبرِك معي ستجني ثمارَ كلِّ تعبِكَ في يومٍ من الأيام. لا تستعجلْ قَطْفَ ثمارِ تعبِكَ، فهذه الشجرة التي تتكلَّمُ عنها بسوءٍ تحميك وتُبرِدُ ماءَ الزيرِ وستطعِمُكَ ثمارًا لم تذُقْها من قبل، ألنْ تتزوجَ ابنَةَ العمِّ بشارة؟ هذا وعدُكَ، وهذا نصيبُك الوافر، فلا تستعجلْ شيئًا.

ولم أستعجلْ شيئًا، وقضيتُ شهورًا أخرى دون أن يمتلئ الزير. ولكنني لم أعد أحتمل، ولذلك جئتُ هنا الآن في هذا الليل الدامس ومعي مصباح ومعي بلطةٌ: المصباح لأكشف به ما في الزير، والبلطة لأقطعَ بها أغصانَ هذه الشجرة التي تحولتْ إلى أحبالٍ تخنقُني وتكادُ تأخذُ آخرَ أنفاسي.

هل أضحك أم أبكي أم ألطم على وجهي وأخلع حذائي وأضربني به إلى أن أعرف السبب وراء كل ذلك؟ لا توجد نقطة ماء واحدة في الزير، كما أن قاعه كبير ومفتوح بحيث يذهب الماء إلى مكانٍ ما أسفله. ولكنْ لمْ تتسرَّبْ نقطةُ ماءٍ واحدةٌ إلى خارج البئر في التربة بجوار قاعه! إلى أين ذهبَ كلُّ الماءِ الذي قضيتُ سنوات في جلبِه من البئر التي هناك؟ هل هي لعنةٌ هذه الشجرةُ التي يقول عنها ذلك الذي أسمى نفسَه العم بشارة إنها مباركة؟ وما الذي سيحدث لو دخلتُ في هذا الزير؟ على الأقل سأفهمُ شيئًا، سأعرفُ السَّبَبَ وراء كلِّ هذا البؤسِ، سأعرف السببَ، ولا بدَّ أنْ أعرفَ السببَ، فلا يمكنني أن أظلَّ كالأطرشِ في الزفَّةِ هكذا، فحتى لو تزوجتُ ابنةَ ذلك الملعونِ سأكونُ الأطرشَ الذي في الزفَّةِ، ولا يمكنني أن أكون كذلك، لن أكون آخرَ مَنْ يَعْلَمُ، سأدخلُ في هذا الزير. لا، لن أدخل فيه قبل أن أكسرَه، لكيلا يتورّطَ فيه أحدٌ بَعدي، سأكسره لوجه الله. هيا اذهبْ إلى جحيم صاحبك الملعون أيها البئر الملعون أيضا، ها هي بلطتي، وها هي عزيمتي، وها أنا ذا، توكّلتُ على الله، يا معين.

نعم!! أرضٌ تحتَ الأرضِ!! وأنا الذي كنتُ أستغرب من أن محصولَ أرضي ضعيف!! من الطبيعي أن يكون ضعيفًا والأرض هكذا. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من كل رجيم! كأن الثمرة ثعبان لدغني! لا، لن أضيّع وقتي ولا نفسي في متاهات تحت الأرض، فربما كان ما تحت الزير مصيدةً. حان دور البلطة، لن تشرق الشمس إلا وأكون قد قطعتُ كلَّ أغصانِ الشجرةِ بإذنِ اللهِ.

*****

قال جدي:

- قبلَ أنْ تشرقُ الشمسُ كان سلامة قد قطع كل أغصان الشجرة. ولكنه بعد أن قطع أغصانها وتنهد، نظر إلى جذعها ووجده عفيًّا ولم يستطع أن يقطعه، فكل ضرباته تركت مجرد ندوب على جذع الشجرة، فنظر إلى الشمس المشرقة وقال:

- على الله توكَّلْنا، إلى القصر ذهَبْنا.

وحمل بلطته على كتفه وسار نحو باب القصر. وما أن بدأت ضرباته تهوى على الباب حتى أيقظتْ الحارسَ والعمَّ بشارة ذاته، وأخذا في الجري نحوه سلامة. فجرى هو الآخر، ولكنه لم يجرِ نحوهما، وإنما فرَّ هاربًا وهو يصيح:

- شجرة ملعونة وصاحبها ملعون، ملعووووووون، ملعووووووووووووون

وأخذ صدى صوتِه يتردد في المكان كله مع كل إشراقة شمس، وكأن صدى صوته يوقظ الناس على لعنة العم بشارة.

*****

كنتُ في كل مرة أسمع الحكاية من جدّي أسأله:

- لماذا لم يجرِ سلامة نحو العم بشارة ويقتله بالبلطة التي في يده.

وفي كل مرة، كان جدي يربت على كتفي ويقول:

- يا ولدي، هل خربتِ الدنيا إلا بعد أن قتل ابن آدم آخاه؟!

هل كنتُ لا أقتنع بإجابة جدي، وبالتالي كنتُ أسأله السؤال نفسه في كل مرة؟ وبمجرد أن أسأل هذا السؤال لنفسي، أسمع صدى صوت سلامة:

- ملعووووووووووووووون

وأحس بحركة أقدامه المتسارعة في الغرفة، فأجري وراءه ولا أعرف كيف تتمدَّدُ جدرانُ الغرفةِ مع حركتي اللاهثة هكذا! أحسُّ بأن الغرفة بلدٌ بأكملها، وربما قارة كاملة، أو كوكب بأكمله، وأجدُني أردِّدُ صدى صوتِ سلامة:

- ملعووووووووووووووون

ولا أحسُّ بنفسي إلا وأنا أرتمي على الأرض وتختفي كل الأصوات وأدخل في هدوء غريب، وأحسُّ بأن جسمي بعيدٌ عنّي تمامًا، وكأنَّه هناك في مكانٍ ما ولا أستطيعُ أن أفتحَ عينيّ...

الفصل الحادي عشر

من أين جاء كلُّ هذا الهدوء؟ هل أنا في منامٍ أمْ يقظة؟ وحدي أشقُّ طريقي في مدينةٍ تبدو مألوفة. أشمُّ رائحةَ البحر؛ أبتسمُ؛ هذه لحظةٌ أتمنّاها منذ سنوات، لكنّ كثرةَ مشاغلي بحثًا وراء لقمة العيش لا تترك لي وقتًا. وألفةُ هذه المدينة تقول بأنني أعرِفُها، ومعرفتي بها تقول بأنَّ البحرَ لا يحدُّها من أيِّ اتِّجاهٍ! صوتٌ في أذني يقول بأنه البحر الأحمر، فيعاودني كلام أبي عن البحر الأحمر، وصوتٌ يهمس في أذني بأنه البحر الأبيض، فلا أتذكَّرُ إلا جلستي في يوم من أيام الشتاء على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الإسكندرية عندما كنتُ أبحث عن عمل وذهبتُ إلى هناك لإجراء مقابلة وظيفية. وصوتٌ يقول لي بأنَّ هذا إعلانٌ. أسمع كلمة إعلان في أذني بنبرةٍ كأنها نبرةُ تحذيرٍ أو تهديدٍ أو تنبيهٍ.

ما هذا؟! لا أحد يسير في الشوارع!! ولكن المدينة لا تبدو خَرِبَةً أو مهجورةً، كما أنَّ هناك ضوءًا خفيفًا ينيرُ المكانَ، ولا يُظهر آثارَ دمارٍ أو هجرانٍ أو تمزُّقٍ أو تفسُّخ..

نورٌ هناك على البُعد، سأسير باتِّجاهه، بالرغم من أنني أستمتع بهذا الشعور بالوحدة أو العزلة أو الفراغ.. هل هو شعورٌ بالفراغ أم شعورٌ بأنَّ هذه المدينةَ لي؟

وتقول لي نفسي:

- اذهبْ إلى ذلك النور؛ فربما تجد شخصًا مثلك وجدَ نفسَه في هذه المدينة المألوفة ويستمتع بالوحدة أو العزلة مثلك..

أحسُّ بأنَّ استمتاعي بالعزلة سيلتحمُ باستمتاعِه بالعزلة، وربما نفكّر سويًّا في طريقةٍ تمدُّ هذا الإحساسَ بالألفة خارجَ هذا السياقِ أو خارج هذا الموقفِ الذي يبدو غريبًا، كأنني لم أكنْ أتألم منذ لحظاتٍ أو ساعاتٍ أو أيَّامٍ أو شهورٍ أو سنواتٍ.. مِن الضجيج، من العبث، من الخواء، من الوجوه الباسمةِ صُفرةً تقبضُ القلبَ وتسرِّبُ الإحساسَ بالخواءِ أو الحراثةِ في البحر إلى قلبي! كأنني لم أتألَّمْ من الأنصافِ المجهولةِ ومن الحلقات المفقودة ومن الماء الذي تحوَّل لونُه إلى الحُمرةِ التي تجلبُ كلَّ أمراضِ الدنيا!

جميلٌ، جميل! جميلٌ جليل! بالرغم من أنَّ واجهاتِ المباني مطفأةُ الأنوار، أحسُّ بالضوءِ الشاسعِ الذي يحيط بكل شيء يكشف بهاءها، وكأنَّ لغةَ الواجهاتِ العاديَّةَ التي تعبِّر عن اسمٍ أو عنوانٍ أو تجارةٍ أو توجُّهٍ أو إعلانٍ تحوّلتْ إلى لغةٍ شاعريَّةٍ تلامسُ قلبي.

أواصل خطواتي، وأنا أتأمل الكلمات وأربط بين عنوان هذه الواجهة وعنوان واجهة أخرى، وأشكِّلُ من الكلمات العادية قصائدَ تتناغمُ في قلبي بلا موسيقى وبلا زخارف.

نعم!! هل كان ذلك النور مصيدةً؟ أم أنني لم أقرأه جيِّدًا ولم أفهم إلامَ يشير؟ أم أنه ظهر لي على البُعد ليلفتَ انتباهي إلى التناقض بين الضوء والنور، مع أن اللغة ربما لا تقول شيئًا عن هذا التناقض؟!

أراني معلَّقًا في مجزرة، هل أقول في محلِّ جِزارةٍ؟ وأناس كثيرون يلتفُّوَن حَوْلَ.. هل أقول جُثَّتِي؟ لا. هل أقول لحمي؟ لا؛ فأنا معلَّقٌ بشحمي ولحمي وعظامي. ويشير المتحلِّقون حولي نحوَ... سأقول جسمي.. نحو جسمي وكأنهم يَدْعُون عملاءَ أو متسوِّقين للفُرجة أو الشراء. لكنني لا أرى أحدًا من هؤلاء العملاء أو المتسوقين. أرى فقط المتحلقين وأرى أصابعهم وأرى عيونهم التي تمتلئُ بابتسامةٍ أو فرحٍ لا أستطيع أن أحدد طبيعتَه: هل هو تشفٍّ أم انتصارٌ أم مجرَّد روتين؟ وكأنَّ تعليقَ مثلي في محلِّ الجزارة هذا شيء طبيعيّ!

أحسُّ بأنَّ الأنوارَ الزاعقة أو الصارخة التي تملأ المكان تُزْهِقُ استمتاعي السابقَ وتُزهق فرحتي وتُزهق روحي، وأتذكّر أنني جئتُ إلى هنا بحثًا عن وحيدٍ أو مُعْتَزِلٍ مِثلي، وعَلامَ يدلُّ تعليقي هكذا؟ لا أحد يشتري، ولا سَكِّينة تقطعُ منّي شيئًا! أرى أيادي كثيرة وسكاكين ترسم خيوطًا وهميةً متقاطعة على جسمي، ولكنّ الوجوه المتحلّقة التي ترسم هذه الخيوط تفزَعُ عندما ترى الأضواءَ بدأتْ تبزغُ من هذه الخيوط وتتمدّدُ في كلِّ الاتجاهات.

أجد الأنوارَ التي كانت زاعقة من قبل تنطفئ فجأة، ولا أدري إن كان الضوء المنبثق من الخيوط المتقاطعة هو الذي يقطعها أمْ أنَّ هناك سببًا آخر، وأرى أصحاب هذه الوجوه يضعون أياديهم على عيونهم، كأنّ الضوءَ المنبعثَ منِّي الذي أراه خفيفًا ولا يمكن له أن يكون صارخًا أمام العيون بحيث يعميها – كأن هذا الضوء يعمي عيونهم. ولكنني أجدُه هادئًا ورائقًا وصافيًا ومسالمًا وسابحًا، ومع ذلك يسدُّون أعينَهم، وفي الوقت ذاته يبدو أنهم يحسُّون بنوع من الإحباط كأنَّهم كانوا يتوقَّعون شيئًا وها هم يجدون شيئًا مناقضًا له، فيندفعون نحو جسمي بالسكاكين التي كانوا يرسمون بها الخيوط، ويحاولون أن يقطّعوا هذه الخيوط بالرغم من أنهم يضعون أيديهم على عيونهم، فيبدو أنَّهم يحفظون مكانَ جسمي جيِّدًا بحيث لا يحتاجون أن يروني كي ينهالوا عليّ بسكاكينهم.

أصرخُ فيهم ويبدو أنني أحسُّ بنوع من التقمُّص الوجداني مع جسمي ذلك، وأحسُّ بألمِه، ولا أعرف إن كان يتألَّمُ فعلًا أم لا، ولكنْ يبدو من منظر السكاكين التي تنهال على جسمي أنَّه يتألَّم، بالرغم من أنه لا يُصْدِرُ صوتًا ولا يصرخُ ولا يطالبُهم بالرحمةِ أو الابتعادِ أو أيِّ شيءٍ من هذا القبيل.

أصرخُ فيهم. في البداية لا يسمعونني، فيبدو أنهم منهمكون في محاولة تقطيعي. وللغرابة لا يتقطَّعُ جسمي. أصرخ أكثر، فيستديرون نحو مصدر صوتي. تبحث عيونهم أو تدقِّقُ تجاهي، ويبدو أنهم لا يروننني، فها هم يفركون

عيونهم، وصراخي فيهم يزداد، فيفركون عيونهم أكثر.. وعندما يفشلون في رؤيتي – ولا أعرف كيف – تبدأ عيونهم في التفتيش في كل الاتجاهات، ولا أعرف علام يفتّشون؛ فأنا أمامهم أو بالقرب منهم بالرغم من أنَّهم حوَّلوا نظرَهم بعيدًا عنِّي في اتِّجاهاتٍ أخرى.

تراودني فكرة خبيثة وأقول بأعلى صوتي:

- أنا هنا؛ لا تنظروا هناك.

من الواضح أنهم لا يستطيعون رؤيتي! ما الذي حدث لي؟ أتحسّس جسمي: أحسُّ بي. أُخرِجُ هاتفي وأفتح الكاميرا الأمامية وأراني؛ إذن لا مشكلة فيّ، فأنا حقيقي ويمكن لأي أحد أن يراني. ما المشكلة إذن؟ لماذا لا يستطيعون أن يروني أمامهم؟ أمازحهم قائلا:

- أنا هنا. انظروا.

أرفع يدي وأقول:

- ها هي يدي.

أشغّل الكاميرا الخلفية لهاتفي وألتقطُ لهم صورة. أدير الشاشة نحوهم وأقول:

- ها هم أنتم. أراكم ويُفْتَرَض أنكم ترونني، ولن أسألكم عن السكاكين التي تنهالون بها عليّ. حصل خير. أنا لا أرى دماء ولا جروحًا في جسمي الذي تعلّقونه، ولا أدري لماذا تعلقونه؟ فأنا لا أعرفكم، وأظن أنكم لا

تعرفونني؛ فلماذا رسمتم الخيوط المتعامدة على جسمي؟ لماذا تحاولون أنْ تمزّقوني؟

يسمعون صوتي، لكن عيونهم ما زالتْ حائرةً، وكأنهم يرون سرابًا ويتأكدون من أنه سرابٌ. يصرخ أحدُهم:

- لا تنصتوا للوهمِ. هو شيطانٌ يريدُ أنْ يصرفَكم عن أخيه الشيطانِ. هيّا إلى سكاكينكم. لا تُبعدوا أعينكم عن هدفِكم.

يبدو أنَّ صوته حفّزَهم أو ثبّتَ عزيمتَهم، فها هم ينهالون على جسمي. لكنّني أسمع لسكاكينهم صوتَ ارتطامٍ، فعندما ينهال أحدٌ بسكّينته على جسمي يبدو كأنها تنهال على صخر، وها هي بعض السكاكين بدأتْ تتكسَّر. أرى في أعينهم نظرةَ غضبٍ جامحٍ أو نظرةَ جنونٍ، فتحمى ضرباتُهم في هستيريَّةٍ واضحةٍ إلى أن تتكسَّرَ كلُّ السكاكين، لكنني أحسُّ بوخزة في قلبي، كنوع من التقمُّصِ أو التوحُّدِ الوجداني، كما ذكرتُ من قبل: أحسُّ بأنَّ هناك وخزةً في قلبِ جسمي الذي هناك فأشعر أنا بوخزةٍ في قلبي. أنا جسمٌ وروحٌ وكلُّ شيء، وهناك جسم.

أفكّر في أن أمازحهم وأقول لهم:

- أنا الفائز الآن. هاتوا رهانَكم.

مع أنني لا أعرفهم ولم أراهنهم على شيء.

ينظرُ أحدهم نحوي أو نحو مصدر صوتي ويسبُّني بألفاظٍ غريبة، لكن من الواضح أنها تعني أن الشيطان ابنُ شيطانٍ وأن الله يختبرُهم بتكسُّرِ سكاكينِهم، وعليهم أن يفكّروا في طريقة جديدة ليحاربوا بها الشيطان.. ينظرون إلى جسمي هناك في رعبٍ، ويتراجعون إلى الوراء قليلا. تتبادل عيونهم النظرات، كأنهم يتشاورون بكلامٍ خاصٍّ أو بطريقة تعبيرٍ خاصَّةٍ، ولا أستطيعُ أنْ أفهمَ كثيرًا من المعاني التي تتبادلها عيونُهم.

لم أجئْ إلى هنا لكي أجد نفسي في هذا الموقف، ولا بدَّ أنْ أنصرفَ. وفي الوقت ذاته، لا يمكنني أن أتركَ جسمي هكذا، بالرغم من أنني أدركُ أنَّ الموقفَ غريبٌ وربما كنتُ في حلمٍ أو منامٍ، كما خمَّنْتُ من قبل، ولكنَّني في الوقت ذاته أدرك أنَّني ينبغي عليّ ألا أتركَ جسمي هكذا في يدِ مثل هؤلاء الناس. وما الذي فعلتُه أنا لأكون شيطانًا في عيونهم هكذا؟ لستُ مسؤولًا عن تفكيرهم، ولكنني على الأقل أستغربُ: كيف يمكن لشخصٍ أن يُشَيْطِنَ شخصًا لا يعرفُه؟ يُفْتَرَضُ أننا كُلُّنا غرباء في مدينةٍ أليفةٍ نَعْرِفُها ولا نَعْرِفُها، نسكنُ فيها ولا نسكنُ فيها، ويُفتَرَض أنَّ هذا الإحساسَ بالوحدة أو الغُربة دافعٌ قويٌّ يدفعُنا لأن نمدَّ أيادينا لبعضنا البعض، لكنْ من الواضح أنَّ هذا تفكيرٌ نادرٌ، ولا أقول تفكيرٌ شاذٌّ، ولكنْ تفكير نادر، فهذه العداوة المقيتة أو العنيفة التي أراها في عيونهم تقول بأنَّ أياديهم لا يمكن أن تمتدَّ نحوَ يدي، فأقول لهم:

- هل تريدون شيئًا آخر؟

ينظرون نحو مصدر صوتي بإنكارٍ واستغرابٍ، وأسمعهم يقولون:

- ما الذي قدّمه لنا حتى يسألنا إن كنا نريد شيئا آخر أم لا؟!! هو لم يفعل لنا شيئًا!!

أستغربُ من أنهم يتهمونني بأنني لم أفعلْ شيئًا لهم؛ فلا بُدَّ لأيِّ اتِّهامٍ على الأقلِّ أن تكون له أرضٌ يقف عليها، لا بدَّ أن تكون هناك علاقة مباشرة بيني وبينهم، ولا بدَّ أن نكون متكاتفين مع بعضنا البعض، وعندما أقصِّرُ في أداء واجبي نحوَهم أو يقصّرون في أداء واجبهم نحوي، هنا يمكن لأيٍّ منَّا أن يتَّهمَ الآخرَ بالإهمال أو بالتَّقصيرِ أو بعدم تقديم خدمة أو بعدم القيام بشيء نافع لي أو لهم. لكنني لا أعرفهم، مع أنني جئتُ إلى هنا بحثًا عن شخص يحسُّ بالوحدة مثلي ولا أعرفه، وكنتُ أظنُّ أنَّ إحساسنا بالوحدة سيجمعنا... ماذا أقول لهم؟ أحسُّ بأنني أريد أن أتقمَّصَ شخصية ما وأفترضَ أنني أعرفهم بالفعل، فأقول لهم:

- وما الذي قدمتموه لي؟ ألا تذكرون أنني عندما طلبتُ منكم أن تقفوا بجانبي إلى أن أقفَ على قدميّ من جديدٍ تركتموني وكأنكم لا تعرفونني؟

ينظر بعضهم نحوي نظرةَ استهجانٍ، وينظر بعضهم الآخر نحو جسمي هناك نظرةً غامضةً لا أستطيع أن أخمّن معناها أو معانيها، لكن من الواضح أنها نظرة مفعمة بمعاني كثيرة. لا يردُّ عليّ أحد، فأكرر سؤالي الاستنكاري:

- ما الذي فعلتموه لي؟!!

يعلو صوتٌ مِن بينهم بملامح أليفة إلى حدٍّ ما، لكنني لا أذكر هذا الشخص، والله يخلق من الشَّبَه أربعين، كما يقول المَثَل، ويقول هذا أو ذلك الشخص:

- أنا جئتُك إلى باب بيتك ودعوتُك، لكنَّكَ عنيدٌ ورأسُكَ صخرة وتظنُّ أنك على الطريق القويم.

يتشجَّع آخر ويقول:

- وأنا طلبتُ منك أن تسلِّفَني جسمَك، ولكنك رفضتَ.

يقول أستاذي الذي بجامعة القاهرة:

- أنتَ خرقتَ كل أواصر التلمذة، وعليك أن تحصد الآن آثارَ أقدامك.

يقول ذلك الشيخ الذي كان من قبل يقف مع شخص آخر عند جامعة القاهرة أو في جمهورية شرقطون واتَّهَمَنِي بأشياءٍ لا أذكرها الآن:

- من أنت حتى تطالبنا بوثيقة الأرض؟ من أنتَ حتى تتهمنا بما قلتَ عليه إنه انتحال؟

يقول خلف:

- أي أرض تلك التي تريد أن تحافظ عليها يا صاحب الأرض؟!!

تبرز امرأة من بينهم وتقول:

- وأنا طلبتُ يدَك، ولكنك ابتسمتَ ابتسامةً غامضةً وأكملتَ الكلامَ كأنني لم أطلبْ يَدَكَ!

تقول طالبة الليسانس:

دماغُك ناشفة، وقال أستاذي إنك مغرور، لماذا لم تَنْزِلْ قليلًا من على كرسيِّك؟ أم تظن نفسك غير البشر؟ الدنيا تغيّرت، يا مغرور.

تقول ثالثة:

- وأنتَ رأيتَ نظرةَ الإعجاب في عينيّ، ولكنَّكَ تجاهلتَني، مع أننا كنّا أصدقاء، وكأنَّ عيني خرساء، وكأنَّك لا تفهم معنى الكلامِ مع أنّك قوّالٌ وكَلَمَنْجِيّ.

أتوقّفُ قليلا؛ أحاول أن أعرف الفرقَ بين القوّال والكلمنجيّ؟ هل كلمنجيّ مجرد ترجمة عاميّة لكلمة قوّال الفصحى؟ أم أنّ هناك فروقًا دقيقة بينهما؟ كلمنجيّ قد تحتمل معاني سيئة ومعاني جيدة، إيجابية وسلبية. أظن أن قوّال توحي صيغتها المبالِغة بالقوّة، بامتلاك ناصية الكلام، بالإيجابية، ولا أظن أن لها معاني سلبية. لكنني أخرجُ من التأمُّلِ الذي قد يُبعِدُني عن الموضوع، ولا أستطيع أن أتذكّر شيئًا يخصُّ ما يقولونه.. هل طلبتْ امرأةٌ يدي من قبل؟ ما معنى أن يستلف أحد جسمي؟ ما معنى أنني لم ألتفتْ إلى نظرة إعجاب؟ هل يكون قلب المرء ممتلئًا أحيانَا بامرأة ما فلا يرى غيرها ولا يرى نظرات الإعجاب أو غيرها في عيون الأخريات؟ ما معنى الهداية التي كان ذلك الشخص يدعوني إليها؟ ما معنى غروري؟ ما معنى الكرسي الذي أجلس عليه وعليّ أن أنزل من عليه قليلا؟ ما الغريب في أن أحافظ على أرضي؟ وهل

تمسُّكي ببعض المبادئ يعني أن دماغي ناشفة أو أنني متزمّت أو متخلّف؟ الكلام له حدود. وفي نفس الوقت، موضوع عدم ظهوري لهم يحيِّرُني. ما داموا لا يرونني، كيف تعرَّفوا عليّ وكيف يتهمونني بهذه الأشياء؟ أم أنهم ظنُّوا أنني شيطان فعلا... لا، ليس "ظنّوا"، هم متأكدون من أنني شيطان فعلا ولديّ القدرة على أن يخرج صوتي بعيدًا عن جسمي! كما في مسرح العرائس أو في التكلُّم من البطن في الأساطير والديانات البدائية... ولماذا يعلقونني هكذا؟! إن كنتُ شيطانًا، ألستُ في هذه الحالة لديّ القدرة على أن أنزل أو أسحبَ جسمي من بينهم وأتركهم واقفين أمام الفراغ؟! وما معنى أنني شيطان أساسًا؟ ولماذا ينظرون إليّ هكذا؟ لماذا يشيطنونني وهم يجهلون مَن أنا وأنا أجهل مَن هم؟ ولماذا يوجدون في هذا المكان الذي كان نورُه واعدًا، مبشّرًا بالحياة الممتلئة، الخالية من الضجيج أو العبث؟ وفي الوقت ذاته، يبدو على وجوههم حزنٌ حقيقيٌّ أو غضبٌ حقيقيٌّ، كأنهم صادقون في كلامهم! وبصراحة أنا لا أحتمل أن أظلَّ مخفيًّا عنهم هكذا، فأصمتُ قليلا، ثم أقول لهم:

- ما رأيكم في أن نبدأ صفحة جديدة، ولكن بشرط أن تكون خالية من العبث.

يتبادلون النظرات فيما بينهم.. يبدو أنهم لا يتفقون على اقتراحي، وها هم ينقسمون إلى قسمين: قسمٌ يتحرك للأمام نحو الموضع الذي خلف جسمي الذي هناك، وقسم يقترب نحو مصدر صوتي. وتبدو على وجوه القسم المبتعد هناك نظراتُ غضبٍ ونظراتُ حيرةٍ، لكنّ الغضبَ أقوى من الحيرة. أمّا القسم الذي جاء نحوي، فعلى وجوههم حيرة، لكنها مشوبة بابتسامة، ومن بينهم المرأة التي قالتْ إنَّ عينها كانت مفعمة بنظرات الإعجاب لي أو بي. وفي القسم الذي هناك، الآخرون الذين اتهموني بأشياء...

أريد أن أمدَّ يدي لهم لأرحِّبَ بهم كي نبدأ الصفحة الافتراضية الجديدة التي حدّثتُهم عنها، ولكنهم لا يرونني. أفكّر في طريقة يرونني بها، ولكنني لا أستطيع أن أتوصّل إلى شيء، فأسألهم مباشرةً:

- أريدُكم أن تروني، فما العمل يا أصدقائي؟

يضحكُ زاهرُ الذي من المفتَرَضُ أنه ابن أخي، قائلا:

- كيف نراك يا صاحب الصوت وجسمُك معلّقٌ هناك؟ اسحبْ جسمَكَ إليك حتى نراك.

كيف غابت عنّي هذه الفكرة؟! ما داموا كانوا يرون جسمي أمامهم مباشرةً هناك، فأظن أنهم لن يتخيّلوا لي جسمًا آخر، وأظن أن هذه الفكرة منطقيّة. ولكنني لا أستطيع أن أتقدّم نحو جسمي الذي هناك!! فأحسُّ بأن هناك حدًّا لا أستطيع أن أتجاوزَه. وفي الوقت ذاته، أجدُ يدي ترتفع من تلقاء نفسِها

وتربّتُ على رأسي وخدّي، وتفتح عينيّ نحو جسمي الذي هناك، وأجدُها تمتدُّ وتصير طويلة جدًّا، ليست طويلة بمعنى يد السارق التي تطول لتستولي على الأشياء التي تقع خارج نطاقِها أو حَرَمِها أو أي شيء، وإنما طويلة هنا بمعنى أنها تتجاوز الحدود والعوائق وتستطيع أن تصلَ إلى الأماكن المحرَّمةِ عليها، وأجد يدي تتحسَّسُ جسمي هناك وتحاول أن تمسحه كله من أوَّلِه إلى آخره كأنها تسدُّ الثقوبَ أو مجاري الخطوطِ التي شقّتْها السكاكينُ. وبعد ذلك تتحرك نحو فمي وأنفي وأحسُّ بأنفاسي، وتنتقل إلى عينيّ اللتين هناك وتفتحهما، فأبصر بامتداد عينيّ لأعلى، ربما في السماء أو في مكان ما يناظرُ السقف – أبصر ضوءًا متوهّجًا، ليس زاهيًا وليس ساطعًا، كأنَّه نهرٌ منسابٌ على ضوء القمر، فالماء يأخذ لونَ ذلك الضوء القَمَرِيّ، وتحسُّ بسَكِينَةٍ وشاعريةٍ وروعةٍ وعظمةِ الخَلَق. وعند هذا الإحساسِ، تسحبُ يدي جسمي نحوي بالتدريج، ترفعه بالطول، رأسيًّا، وتقرّبه بالتدريج نحوي إلى أن تلصقه بي تمامًا. وعندئذ أجد الفريق الذي جاء نحوي يهلّل ويكبّر ويترنّم ويسبّح: هل رأى معجزةً مثلا؟ لا أعرف. لكنهم يرونني الآن متجسِّدًا أمامهم. يبدؤون في أن يتحسَّسوا جسمي، وكأنهم يريدون أن يتحقّقوا مما إذا كنتُ حقيقةً أمامهم الآن أم لا.

بعد أن تهدأ ثورتُهم أو سَكْرَتُهم أو... لا أعرف اللفظ الذي.. ليستْ سَوْرَةَ الغضبِ، وإنما سورة الذهول أو سورة الدهشة، يفركون أعينهم من جديد ويقرّبون عيونهم منّي ويبتعدون. يلفّون حولي من كل الاتجاهات، وأدور معهم، ربما كي يكون وجهي ظاهرًا لهم، وأجدهم يقولون في نَفَسٍ واحد:

- مَن أنتَ؟ ولماذا تَشَكَّلَ صوتُكَ على هيئةِ صوتٍ نعرفُه؟

أودُّ أن أقول لهم، ساخرا:

- وهل جسمي تشكَّل على هيئة جسم آخر؟!! أنتم الذين رأيتم جسمي هكذا وسمعتم صوتي هكذا!!

ولكنني أقول لهم بنبرةٍ أقرب للحيادِ:

- أنا لم أدّعِ أنني أعرفكم، لكنني غريب ووحيد في هذه المدينة.

يقولون:

- وما الجديد في ذلك؟ نحن أيضا وحيدون وغرباء في هذه المدينة!

فأخبط كفّي بكفِّ أحدِهم مبتسمًا وأقول:

- ها نحن التقينا.

تخرج بعض الأصوات الغاضبة من بينهم وتقول:

- ما هذا العبث؟ هل نضيفُ العبثَ إلى الوحدة والغربة؟ ألمْ تقُدْنا الوحدة والغربة إلى العنف؟ جثّتُك تشهد، ها هي هناك، خدعتَنا وجعلتَنا نظنُّ أنك نقلتَ جسمَك إلى هنا، لكن انظرْ يا غبيّ، ها هي جثّتُك معلقة هناك.

أنظرُ إلى هناك، فأجدني هناك بالفعل، عبارة عن هيكل عظميٍّ، ماعدا قلبي ورأسي، فمازالا محتفظين بملامحهما وحركتهما. والغريب أنني أرى جثّةَ رياض أيضًا بجانب جثّتي، وقلبُه ورأسُه أيضا يحتفظان بحيويّتهما. أقول بحدَّةٍ:

- كفى، كفى؛ لن نستمر في هذا العبثِ. من الذي يريد أن يؤنس وحدته وغربته معي؟

أسلّم على أصحاب الأيادي الذين رفعوا أياديهم إجابةً على سؤالي أو استفساري وأسألهم:

- في أي اتجاه نسير؟

وأجدهم يلتفتون في اتجاه بعيدٍ عن بقعة النور الزاعق هذه، وبينهم رياض، فنشبك أيادينا ونسير في الاتجاه وأنا أحسُّ بدفءٍ وحميميَّةٍ...

أجد البحرَ أمامنا، فنخلع أجزاءً من ثيابنا ونلقي بأنفسنا في الماء المضاء بنور القمر...

الفصل الثاني عشر

ما كل هذا العطش؟! مَن الذي ذهب بي إلى البحر وأرجعني عطشانًا؟ ذلك النيل الذي كنا نقول عنه في جهينة إنه بحر. كأنني لم أشرب ماءً منذ شهور! أين أنا؟ هذه الأرض أعرفها جيدًا. هي أرض أولاد عمي التي تقع خلف بيتنا مباشرة. من أين جاء هذا الباب في بيتنا من الخلف؟!

يبدو أنَّ كلامَ زاهر كان صحيحًا، فمن الواضح أن بيتنا صار له بابان: باب من الأمام، وباب من الخلف. ولكن لماذا غيط أولاد عمي ميّتٌ هكذا؟ فلا توجد به شجرة أو نبتة واحدة خضراء! هل كان البحر حقيقيًّا أم أنني كنتُ نائمًا؟ ولماذا كنتُ أردِّدُ مع سلامة: "ملعووووووووووووون"؟!

أين رياض؟ لم أسمع صوته طوال وجودي في تلك الغرفة التي اتسعت وتمددتْ كأنها مطاط يتشكّل بامتداد الخطوات التي كنتُ أخطوها وراء سلامة وصدى صوته! فقط رأيتُ جثّته كما رأيتُ جثّتي، واستنكرتُ عبثَ الموقف. أليس هذا غريبًا؟ أم أنني الغريب؟ هل أنا عاقل أم مجنون؟ لا أظن هذا ولا ذاك. كيف أكون غير عاقل وغير مجنون؟ لا أعرف، ولكن من المؤكد أن هناك مرحلة وسطى بين هذا وذاك، فلا يمكن أن يكون كل ما رأيتُه بكل تفاصيله مجرد وهم، ولا يمكن أن يكون أيضا حقيقة واقعية، فما الذي يجعل جدران الغرفة تتمدد؟ وما الذي نقلني من الغرفة إلى البحر وتلك المقصلة؟

وكيف خرج سلامة من حكاية جدي وتجسَّد أمامي بكل تفاصيل حكايته أمام عيني هكذا؟ ولماذا كنتُ أنا في النهاية صدى لصدى صوت سلامة؟ وما تلك الشاشة التي كانتْ تُعْرَض عليها مشاهد من حياتي وحياة أبي وحياة أخي؟ لا أذكر أنني سافرتُ مع أبي وأخي معا في أي وقت من الأوقات، مع أن ما رأيتُه على الشاشة أو في تلك الغرفة كان يجسّد حالة أبي في آخر حياته، وهو يجسّد أيضا حالة أخي حاليًا، إذا كان الوقت هو الوقت وكان الزمن هو الزمن، فلم أعد متأكدًا من شيء.

لكن غياب الخضرة عن غيط أولاد عمي يقول إن ما رأيتُه وكنتُ فيه كان حقيقيًّا. وأكاد أرى الآن الهاوية التي كان قعرُ الزير ينفتح عليها فيما رأيتُه مع سلامة، فأصرخ بأعلى صوتي:

- يا سلامة، يا سلالالالالالالالالامة!

بعد دقائق من صراخي المتواصل أسمع صوتًا يقول:

- من ذلك الغريب الذي يناديني؟

أرد عليه:

- أنا رائد، ربما كنتُ شخصًا غريبًا مثلك.

يضحك ضحكة طويلة أحسُّ فيها بنبرة رياض:

فأقول له وأنا أحاول أن أمسك بالعصا من المنتصف، فلم أعد متأكدًا من شيء بالرغم من كل التفاصيل الدقيقة التي رأيتُها في الغرفة التي هناك وفي جسمي الذي هناك:

- أين أنت يا ابن الناس؟!

أحسُّ بخشخشة بين النباتات الجافة، ولا أعرف لماذا أتراجع للوراء قليلا، فأنا لم أعهد نفسي أخاف من شيء حتى لو كان هذا الشيء عبارة عن شبح، ولا أخاف إلا من المستقبل بالرغم من ثقتي البالغة بالله سبحانه وتعالى، فأنا أُدْرِكُ تمامًا أن الله لا يغيِّرَ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، سواءً أكان ذلك للأحسن أم للأسوأ، كما أعلن الله ذاته عن إرادته. أتمالكُ نفسي وأقفُ واثقًا، وأقول:

- أين أنت؟

يرد عليّ الصوت الذي لا أعرف إن كان صوت رياض أم صوت سلامة أم كان خليطًا بين الصوتين:

- أنا هنا.

فأجدني أضحك ضحكة طويلة وأقول له:

- وما معالم "هنا" يا محدِّدَ الاتجاهاتِ؟

يقول لي بصوتٍ ضعيف ولكنه واضح بالنسبة لي:

- كنتُ أحدِّدُ الاتجاهات من قبل، ولكنني الآن صرتُ جهةً تحتاج إلى تحديد بعد كل هذا الذي رأيتُه. سامحَك اللهُ يا صديقي. سامحك الله.

أسأله:

- هل أنت رياض؟

يضحك ضحكة واهنة ويقول:

- وهل الذي يعرفك يظل رياضًا؟!

فأضحك لضحكته وأقول له بالطريقة نفسها:

- وهل الذي يعرفك يظل رائدًا أو شريفًا؟!

يقول لي بصوت ذي نبرة أقوى:

- إذن، هو أنتَ، تعالَ لترفعَني من هذا السقوطِ الحادِّ. هي أرضكم ولا بدَّ أنَّكَ تستطيعُ أن تحدِّدَ مكاني، فلا أستطيعُ أن أنهضَ من هذا المكانِ الشائكِ. ها أنا أهز هذه النباتات الجافة.

أحسُّ بأنفاس حارقة تكاد تلامسني، ولا أعرف من أين تجيء، ولكنني لا يهمُّني إلا أن أصل إلى رياض لأرفعه من السقوط الحاد الذي يتكلم عنه. يمد يديه لي، فأمسك بكلتا يديه بقوة وأرفعه، سائلًا:

- ما الذي رماك هنا هكذا؟

ينظر لي بعتاب ثم يتكئ عليّ ويقول:

- كل ما أريده الآن هو أن أرى ذلك الرجل أو المرأة التي قالت: عند جهينة الخبر اليقين. كدتُ أجنُّ يا رائد باشا! ما الذي رماك على المرِّ؟

أقول له ضاحكًا:

- عندما تجيبني على سؤالي عن الذي رماك هنا هكذا سأجيبك وأقول لك إنني لا أعرف.

فيضحك ضحكةً واهنةً وهو يتحسَّسُ رقبتَه ويقول:

- أريد أن أشرب. أحسُّ بأن جوفي لم يلمسه الماء منذ شهور.

أقول له:

- دقائق ونصل إلى أمي وسنجد عندها كل شيء بإذن الله. هيا بنا نلف حول بيتنا القديم لنصل إلى البيت الجديد الذي تعيش فيه أمي، وهناك سيأتي لنا زاهر بالماء على الفور.

يقول لي وهو يبتسم ابتسامة فيها قدر من المرارة:

- بصراحة، بعد الذي رأيتُه في تلك الغرفة المتمددة، لم أعد أثق حتى بوجود أمك أو زاهر.

أضحك ضحكة مُرَّةً ولا أعرف لماذا، وأقول له:

- أبشرْ بالخير إن شاء الله، ألا تقولون في شرقطون ذلك؟

يقول لي وهو يحاول أن يضحك:

- قلتُ لك إن ما رأيتُه في تلك الغرفة كثير، وأنساني حتى ما نقوله في شرقطون.

وما أن نلفَّ مع سور البيت القديم، أجد غيطنا يشبه غيط أولاد عمي تمامًا، فلا يوجد أي أثر للخضرة. أنظر إلى أظافري، أجد أنها قصيرة كما هي. أتحسس ذقني أجد أنها نابتة بعد أن حلقتُها بالأمس، فأنظر إلى رياض وأسأله:

- هل تستطيع أن تحدد منذ متى ونحن هنا؟

يسألني:

- ما الذي يجعلك تسأل هذا السؤال؟

أقول له:

- كل ما حولنا يقول إننا كنا هنا منذ شهور أو سنوات، مع أنَّ شَكْلَنَا لا يظهرُ عليه أيُّ أثرٍ لهذه الفترة الطويلة.

يقول لي:

- لا تقلقْ. أنا أستطيعُ أن أحدِّدَ الوقتَ جيدًا، فهذه الشمسُ المشرقةُ تقول إننا قضينا الليل وجزءًا من نهار أمس على الأقلِّ في هذا البيت الملعون. أنا آسف، فلا أجد وصفًا يليقُ به أقل من ذلك.

أقول له:

- لا داعي للاعتذار، فأنا شخصيًّا لمْ أَعُدْ أعرفُ شيئًا، مع أنَّ كلَّ شيءٍ كان دقيقًا في تفاصيلِه بالداخل.

يتوقف وينظر إليّ مباشرة ويسألني:

- هل دخلنا غرفة واحدة؟

أقول له:

- سلامتك يا رياض! لا، بالطبع، كنتُ أنت في غرفة على يمين السقيفة، وكنتُ أنا في الغرفة الأخرى على يسارها.

يسألني باستغراب:

- هل رأيتَ سلامة؟!

أقول له بنبرة أحسُّ بأنها غير صادقة:

- خير في سلامة وسلامة في خير.

يقول لي بحدَّةٍ وجديَّةٍ:

- دَعْكَ من الأمثالِ الآن، أسألك سؤالًا محدَّدًا: هل رأيتَ سلامة؟

أسأله:

- من سلامة هذا؟

يقول لي:

- أظن أنني كنتُ صريحا معك ومع أمك، وأنت ناديتَ اسم سلامة قبل أن تأتي لترفعني من السقوط الحاد.

أقول له:

- أنا لا أنكر ذلك، ناديتُ سلامة، ولا أعرف لماذا، ولكن ربما لأنني رأيتُ حكاية جدي عن سلامة تتجسّد أمامي في الغرفة.

يسألني:

- هل هي حكاية الشاب سلامة والعم أو الأب خدوم؟

أقول له:

- لا أعرفُ هل أنفي كلامَكَ أم أُثْبِتُه! فهي حكاية الشاب سلامة، لكن الرجل الآخر كان اسمه العم أو الأب بشارة.

يقول لي:

- ربما لا تهم الأسماء، هل العم أو الأب بشارة طَالَبَ سلامة بأن يملأ بئرًا بالماء واكتشفَ سلامة أنَّ البئرَ مجرَّدُ ممَرٍّ ينفتحُ على وادٍ سحيقٍ؟

أقول له:

- يبدو أن حكاية سلامة لها أكثر من وجه. دعك من سلامة الآن، وقل لي: ما الذي رماك في ذلك الغيط؟

يقول ضاحكًا:

- كنتُ أجري مع سلامة أو وراءه. وبعد ذلك رأيتُ جثّتي وجثّتك، وسمعتُك تتحدث عن ضرورة التخلص من العبث، فسرتُ معك ومع الآخرين نحو البحر حتى نعانق الحياة. ولكنني الآن عطشان جدًّا.

أنظرُ إليه باستغرابٍ وأقولُ له:

- حمدًا لله على عودتك بالسلامة. حمدًا لله على عودتنا بالسلامة.

يحمد الله ويهنئني على عودتنا بالسلامة، ولا نعرف لماذا نظنُّ أنَّنا كنَّا في سفرٍ طويلٍ أو في رحلةِ عذابٍ وتعذيبٍ وتنبيهٍ؟ يهزُّني ويقول مفزوعًا بنبرةٍ أقرب للسخريةِ والاستنكارِ:

- ها نحن وصلنا بالسلامة يا سلامة أفندي!! ألم أقل لك إنني لم أعد متأكدًا؟

لا أصدّق ما أراه، وأحسُّ بأن الحلقات المفقودة التي تمكنتُ من الوصول إليها وأنا بالداخل حلَّتْ محلّها حلقات مفقودة أخرى، فلا يوجد أي أثر لأمي ولا لزاهر، وكأنهما فصُّ مَلْحٍ وذابَ أو قطرةُ ندًى وتبخّرتْ أو طيفٌ ظهرَ فجأة ثم اختفى!

لا يمكن أن يستمرَّ كلُّ شيءٍ بمِثْلِ هذا المنطقِ الذي هو غيابٌ تامٌّ للمنطقِ! لا يمكن أن تستمرَّ الحياةُ هكذا!! كأنَّ بيتَنا الجديدَ يسكنُه العنكبوتُ منذ سنوات وربما منذ عقود من الزمن! كأن عيني لم ترَ شيئًا قبل أن أدخل البيت القديم!

كأن البيت الجديد كان وهمًا! أجري نحو داخل البيت، فلا أجد ما يبشّر بالحياة، حتى الثلاجة لا وجود لها! حتى البصل لا وجود له! حتى الدِّكَة التي كنتُ أجلس مع أمي ورياض عليها لا أثر لأي شيء عليها يدل على أننا كنا موجودين هنا بالأمس! أجري نحو موتور المياه أمام البيت، أجده موجودًا، ولكنه متآكِلٌ بسبب الصدأ. أنظر إلى رياض الجالس مذهولًا على الأرض أمام البيت وأسأله:

- من أنا؟ ومن أنت؟

يقول بابتسامةٍ مُرَّة:

- أنا رياض وأنت رائد، وأمك كانت تناديك بشريف. ورأينا زاهر هنا بالأمس. هل سنفقد حتى أسماءنا؟!

أسأله:

- ولماذا لم تختفِ أسماؤنا هي الأخرى؟

يقول لي بعد صمتٍ:

- الآن أدركُ مغزى تعليم الله الأسماء لآدم في بداية التمهيد للحياة على الأرض.

أقول له:

- مع أن الوقت ليس وقتَ فلسفة، أرى أنها وجهة نظر منطقية.

ينظر إليّ مبتسما ابتسامة تخلو من المرارة ويقول:

- بشّرَك الله بالخير. ها هو شيء منطقي يظهر في حياتنا، ها هو شيء منطقيّ.

أنظر إلى نباتاتِ القمحِ الجافَّةِ التي تخلو من السنابل وأقول لرياض دون أن أعرفَ إن كان كلامي سؤالًا أم جملةً خبريَّةً:

- تعتقد أن خلو القمح من السنابل منطقي.

يقول لي بثقة زائدة:

- لا تدعْ غيرَ المنطقي يشوِّشُ على منطقِكَ.

ويدير وجهه نحو غيط القمح ويديم النظر إليه، فأجد نفسي أشاركه النظرة الطويلة للقمح الخالي من السنابل، وكأن هذا الغيط شهد سنواتٍ عجافًا لا حصر لها. تمتزج صورٌ كثيرة في خيالي أو في رأسي، ولكنَّني متأكِّدٌ تمامًا من أنَّها ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ أمام عيني، فالقمحُ الخاوي هو بعينِه ما زال أمامي، فأبتسمُ ابتسامةً لا أعرفُ إن كانتْ خبيثةً أم واعدةً، وأنظرُ إلى رياض، فأجدُه يبتسمُ الابتسامةَ ذاتها، ويسألني عندما تلتقي عيونُنا:

- هل تفكِّر فيما أفكّر فيه؟

أقول له:

- أذكر أنني أحتفظ بعلبة سجائر وعلبة كبريت وأنا على طريق السفر.

يقول لي:

- هل نحن صورةٌ من بعضنا البعض؟ أنا أيضًا أحتفظ بهما على طريق السفر، مع أنني لا أذكر كيف سافرنا وجئنا إلى هنا.

أقول له:

- لا يهمُّ كيف جئنا، فالمهمُّ الآن أنَّنا لدينا الفكرةُ نفسها، وتبدو فكرةً جيِّدَةً.

يقول لي بتأكيدٍ:

- نعم، هي فكرة جيدة، بالرغم من أنها لم تخطر ببالي من قبل في مواقف بها بعض الشبه بموقفنا الآن.

نلقي نظرتين حيادتين على البيتين ويقول لي:

- هل تستطيع الجري؟

أضحك وأقول له:

- وهل رماني خارجَ هذا البيتِ إلا جريي وراء سلامة؟

يضحك ويقول لي:

- أتمنى أن أرى سلامة هذا، فلقد جريتُ وراءه طويلًا.

أقول له:

- إذن هيا بنا.

ينهض ونجري ونحن نقول بأعلى ما يمكننا من صوت:

- ملعوووووووووووووووووون

بيوت أولاد أعمامي وجيراني لا تختلف كثيرًا، وغيطانهم هي نفسها غيطاننا: هشيم لا تذروه الرياح، وقمح بلا سنابل نَذروه فيها، وأنا ورياض نجري إلى أن نصل إلى الطريق الرئيسي خارج الغيطان، فأخرج علبة الكبريت من جيبي ويُخرج علبة الكبريت من جيبه. يشعل كلٌّ منّا عودَ كبريت، ويرميه على هذا الهشيم وننطلق على أمل أن نصل إلى برٍّ أمانٍ بإذن الله.

١٢ أكتوبر ٢٠١٧-٢٩ ديسمبر ٢٠١٨

جمال الجزيري في سطور

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد (جمال الجزيري) في ٢ أغسطس ١٩٧٣ بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. قاص وشاعر وروائي ومترجم وناقد ودكتور جامعي مصري. بدأ مشواره الأدبي في عام ١٩٩١. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج ١٩٩٥. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة ١٩٩٨عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر١٩٣٦ – ١٩٦١"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام ٢٠٠٢ عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف ١٩٦٧ – ١٩٨٧". يعمل منذ عام ١٩٩٩ بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. بدأ نشر دراساته النقدية في عام ١٩٩٩ بدراسة بعنوان "مشروعية دراسة عتبات النص"، وبدأ نشر كتبه الأدبية في عام ٢٠٠١ بمجموعته القصصية فتافيت الصورة، وقبلها بدأ نشر كتبه المترجمة عن اللغة الإنجليزية في المشروع القومي للترجمة (المجلس الأعلى للثقافة، مصر) ثم في المركز القومي للترجمة. ومنذ تلك السنوات توالت أعماله في فروع القصة والترجمة والشعر والنقد الأدبي والرواية والمسرح، بالإضافة إلى كتبه ودراساته باللغة الإنجليزية. وحصل على عدة جوائز في القصة القصيرة والشعر والنقد الأدبي. نشر حوالي ٥٠ كتابا ورقيا ما بين القصة والشعر والرواية والنقد الأدبي والترجمة. ونشر حوالي ٩٠ كتابا

إلكترونيا ما بين القصة والشعر والهايكو والهايبون والرواية والمسرح والنقد الأدبي والترجمة. وهو عضو هيئة تحرير مجلة European Scientific Journal التي تصدر في البرتغال، كما أنه رئيس تحرير مجلة International Journal of English Literature and Culture التي تصدر في نيجيريا.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

العمر: ٤٦ سنة

الجنسية: مصري

المهنة: دكتور جامعي، تخصص الأدب الإنجليزي، كلية الآداب بالسويس، جامعة السويس، وحاليا: أستاذ مشارك الأدب الإنجليزي في قسم اللغات والترجمة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة.

رقم الهاتف: ٠٠٩٦٦٠٥٣٢١٠١٥٤٤ (السعودية) (واتساب واتصال).
٠١٢٢١٠٩٠٩٥٥ (مصر؛ اتصال) و٠١١١٦٤٩٠٩٥١ (مصر؛ واتساب)

رابط صفحة الفيسبوك:

https://www.facebook.com/gamal.elgezeery.73

البريد الإلكتروني: elgezeery@gmail.com

جـوائـز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي ١٩٩٥
* المركز الثالث في القصة القصيرة، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٦ – ١٩٩٧ عن مجموعة بعنوان أساطير.
* المركز الثالث في النقد الأدبي، المسابقة المركزية لهيئة قصور الثقافة ١٩٩٩ – ٢٠٠٠، عن دراسة بعنوان الرؤية الحضارية للإبداع عند شكري عياد.
* جائزة ناجي نعمان الأدبية لعام ٢٠٠٩ (جوائز الإبداع) عن ديوان شعر بعنوان وطن بطعم الأسئلة.
* تنويه لجنة التحكيم في الدورة السادسة لجائزة دبي الثقافية للإبداع (٢٠٠٨-٢٠٠٩) بمجموعة قصصية له بعنوان وجوه الطمي.
* جائزة عبد الغفار مكاوي للقصة القصيرة ضمن جوائز اتحاد الكتاب (مصر) ٢٠١٠، عن المجموعة القصصية غلق المعابر.
* وسام التميُّز من الدرجة الأولى في القصة القصيرة في العالم العربي لعام ٢٠١٠ عن المجلس العالمي للصحافة عن قصة بعنوان "الرئيس الجديد".
* جائزة الدكتور زكريا الملكاوي في الشعر عن قصيدة بعنوان "امتلاء"، أبريل ٢٠١١.
* جائزة منف للرواية العربية الإلكترونية عن رواية بعنوان "بعد الطوفان"، ٢٠١٧.
* جائزة دار السعيد للنشر والتوزيع، فرع الرواية، عن رواية بعنوان "طريق الخروج"، ٢٠١٩.

إصدارات

١- أصدر إحدى عشرة مجموعة قصصية: فتافيت الصورة (٢٠٠١)، بدايات قلقة (٢٠٠٤)، نقوش على صفحة النهر (٢٠٠٩)، غلق المعابر (٢٠١٠)، رائحة مأتم (٢٠١٠)، اشتعال الأسئلة الخضراء (٢٠١١)، الطريق إلى الميدان (٢٠١١)، كاميرا ونظرة عين (٢٠١٧)، صورة واحدة تكفي (٢٠١٨)، اضحكْ يا ولدي (٢٠١٨)، عيون جريحة (٢٠١٨).

٢- كما أصدر أحد عشر ديوانا شعريًّا: لا تنتظر أحدًا يا سيد القصيد (٢٠٠٩)، حفل توقيع (٢٠١٠)، ونظلُّ على الإشراق (٢٠١٠)، أصوات نهر قديم (٢٠١٠)، خارطة المطر (٢٠١٠)، أسفار سيدة النهر (٢٠١١)، بنت النهار (٢٠١١)، ميدان المرايا (٢٠١١)، نظراتُ روحي (٢٠١٨)، جذور إشراق (٢٠١٨).

٣- أصدر مجموعة روايات قصيرة: شوط أول: ست روايات قصيرة (٢٠١٨).

٤- أصدر مجموعة نصوص هايبون: طواحين الكلام (٢٠١٨).

٥- أصدر عدة كتب في النقد الأدبي: الحوار مع النص: جماعة بدايات القرن نموذجًا (٢٠٠٢)، الإبداع والحضارة عند شكري عيَّاد (٢٠١٠)، وظائف المكان وجماليّاته في رواية فساد الأمكنة لصبري موسى (قيد الطبع في هيئة الكتاب، ٢٠١٩). كما أصدر عدة كتب إلكترونية في النقد الأدبي: الأدب والثورة: دراسة

في رواية قُشتمر لنجيب محفوظ (٢٠١٥)، قراءة الثورة بأثر رجعي: دراسة في قصائد خديجة للسمّاح عبد الله (٢٠١٥)، الزمن ودلالاته في شعر السمّاح عبد الله (٢٠١٥)، تجلّيات الزمن في ديوان مديح العالية للسمّاح عبد الله: دراسة ومعجم (٢٠١٥)، مقدمة نقدية في قصيدة الهايكو (٢٠١٦).

٦- وأصدر كتابا إلكترونيا عن العامية المصرية: كلمات وتعبيرات مصرية: مقالات ومعجم مصغَّر في اللغة والثقافة (٢٠١٦).

٧- وأصدر نحو عشرين كتابا مترجما من الإنجليزية إلى العربية ومعظمها صادر عن المركز القومي للترجمة: أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (جزءان) (٢٠٠١)، أقدّم لك الذهن والمخ (٢٠٠١)، سحر مصر للرحالة الإنجليز (٢٠٠٢)، أثدّم لك كافكا (٢٠٠٣)، أقدم لك تروتسكي (٢٠٠٣)، أقدم لك فرويد (٢٠٠٣)، أقدّم لك بارت (٢٠٠٣)، اليهودية أيديولوجية قاتلة: التاريخ اليهودي وسطوة ثلاث آلاف سنة (٢٠٠٣)، أقدّم لك علم العلامات (٢٠٠٥)، أقدم لك الحركة النسوية (٢٠٠٥)، أقدّم لك ما بعد الحركة النسوية (٢٠٠٥)، أقدم لك القتل الجماعي (المحرقة) (٢٠٠٥)، أقدّم لك التحليل النفسي (٢٠٠٥)، أقدم لك النظرية النقدية (٢٠٠٥)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. الجزء الرابع: القرن الثامن عشر. المجلد الأول (٢٠٠٦)، رواية السيد (٢٠٠٦)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي. الجزء الثامن: من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية (٢٠٠٦)، معجم دراسات الترجمة (٢٠٠٧)، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: المجلد الثالث: عصر النهضة (٢٠١٥)،

موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: المجلد الرابع: القرن الثامن عشر: الجزء الثاني (٢٠٠٩).

٨- كما قام بمراجعة ثلاثة كتب في الترجمة صادرة عن المركز القومي للترجمة: فندق الأرق (ترجمة أحمد شافعي: ٢٠٠٤)، وجه أمريكا الأسود: وجه أمريكا الجميل (ترجمة أحمد شافعي: ٢٠٠٥)، رواية السيد لثريا أنطونيوس (ترجمة جمال الجزيري ومحمود حسب النبي: ٢٠٠٦).

٩- وأصدر ثلاثة كتب بالإنجليزية في دور نشر ألمانية وهي:

1- Elgezeery, Gamal. *Narrative Aspects of Roger McGough's Poetry 1967-1987: A Study of the Intersection of Poetry with Fiction*. Germany: VDM Verlag Dr. Müller (2011)

2- Elgezeery, Gamal. *Human Objectification in Carol Ann Duffy's The World's Wife*. Saarbrucken (Germany): Lap Lambert Academic Publishing, 2014.

3- Elgezeery, Gamal. *Little Red Riding Hood: From Orality to Carol Ann Duffy*. Saarbrucken (Germany): Lap Lambert Academic Publishing, 2014.

١٠- كما نشر عشرات المقالات والدراسات بالعربية والإنجليزية، ونشر عشرات الكتب الإلكترونية.

الفهرس

الفصل الأول _____ ٥

الفصل الثاني _____ ٢٣

الفصل الثالث _____ ٣٩

الفصل الرابع _____ ٥٩

الفصل الخامس _____ ٦٩

الفصل السادس _____ ٨٨

الفصل السابع _____ ١٠٤

الفصل الثامن _____ ١١٣

الفصل التاسع _____ ١٢٧

الفصل العاشر _____ ١٣٧

الفصل الحادي عشر _____ ١٥٢

الفصل الثاني عشر _____ ١٦٧

جمال الجزيري في سطور _____ ١٨٠

جوائز _____ ١٨٢

إصدارات _____ ١٨٣